رواية

"خطوة في المنتصف"

مُسَيَّد المومني

وزارة الثقافة
طبع بدعم من وزارة الثقافة
2016

رواية خطوة في المنتصف

رواية

خطوة في المنتصف

طبعت بدعم من وزارة الثقافة

الطبعة الأولى ٢٠١٦

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة

مُسَيَّد المومني

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٩٠٥ / ٢ / ٢٠١٦)

٨١٣,٩
المومني، مسيد محمود
خطوة في المنتصف// مسيد محمود المومني - عمان: دارأمجد للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠١٦
( ) ص.
ر.أ.: ٩٠٥/ ٢ / ٢٠١٦
الواصفات: القصص العربية// العصر الحديث.

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله، واستنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر
تصميم الغلاف: محمد عارف الهلال. لوحة الغلاف: Richard Burlet

(ISBN) ٩٧٨-٩٩٥٧-٩٩-٣٣٣-٧ (ردمك)
Copyright ©
الطبعة الأولى ٢٠١٦
جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات او نقله، واستنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر
All rights reserved. NO part of this book may be reproduced, stored in aretrival system, or transmitted in any form or by any means, without prior permission in writing of the publisher.

دار امجد للنشر والتوزيع
عمان- الأردن- شارع الملك حسين مقابل مجمع الفحيص
جوال: 0796914632 - 0799291702
هاتف: 4652272 فاكس 4653372
dar.almajd@hotmail.com
dar.amjad2014dp@yahoo.com

الإهداء

إلى الأنانية المتوارية خلف (لا أستطيع)، و(لا أستحقك) لتغطي ضعفا، لكل سبب علّق شخصا في المنتصف: نهدي كأساً من حنين لا يبرأ منه.

جسور العاطفة المعلقة فوق حدين فاصلين بين ما كانت ترغب في تحقيقه وبين ما يمكن أن تسعى إلى تحصيله وهي عالقة في المنتصف لا ترجو للعودة سبيلا وتخاف من المضي قدما، تقلقها وتضغط على أعصابها، فتبالغ في البحث عن سبب للهروب حتى صارت مكشوفة النوايا للبعض واضحة الخطط.

لا تنكر أنها علقت هناك مرات عديدة، لكنها كانت تشد عزمها، وتدفع بخطواتها لتكمل المسير وكلها إيمان أن مجهولا مخبأ خيرٌ من حاضر مشوش.

- لازم تحضري الحفل وما في أعذار هاي المرة.

تصميم صديقتها فداء على إعادة صياغة ميولها النفسي، وتغيير نسقها المعيشي الرتيب، واستثارة مشاعرها من تحت ركام الماضي، يدفعها كل مرة لتقديم حجج تخلصها من المشاركة في حفل ما، لكنها قوبلت بالفشل هذه المرة، وما كان منها إلا أن قالت: حاضر.

- "لا أعذار، لا أعذار"... رددتها بغلٍّ بينها وبين نفسها وهي تدخل بهو الفندق، استوقفتها إضاءة خفيفة مصدرها ثريا فاخرة تتدلى

وسط سقف قبة زينت أطرافها تماثيل صغيرة من رخام أبيض لكيوبيد الحب، وحول الثريا مجموعة من الرسوم الهندسية الشرقية، نقطة ضعفها هذا الجو الدافئ الحميمي، كأنه ترجمة لماضٍ بحنكة مهندس ديكور إلى معاصر حديث، وزعت نوافذ على مساحات واسعة من السقف، وطعِّمت بقطع زجاج ملونة عكست أضواء الثريا حول الحضور، فشاع بينهم جو من الألفة ساعدها على تخطي أولى مراحل التأقلم.

أقبلت فداء مسرعة، صافحتها وهمست في أذنها بكلام ذي مغزى: ما كل هذا الجمال، فستانك الأسود هذا سيزف لكِ مفاجأة ما، أرسمي على وجهك ابتسامة متفائلة حتى لو كانت ادعاء.

كانت ترتدي فستانا من الدانتيل الأسود، مطعّما بخرز من نفس اللون على قبّة بحرية تكشف رقبتها الطويلة، تتوجها تسريحة شعر شانيون فرنسي، وتكشف القبة جزءاً من أكتافها، تلتقي بأكمام تنتهي فوق رسغها، دقيق عند الخصر، آخذ بالاتساع إلى أخمص قدميها .

تركتها فداء وتابعت الترحيب بالوفود، ولتتجاوز الشعور بالخجل ارتدت قوة الشخصية والثبات، رغم ما كان يعتمل داخلها من اهتزاز عنيف سببه التجمعات، انتقل إلى أصابع يديها فزادت من قوة قبضتها على حقيبتها الفضية الصغيرة...

ببعض كلمات نطقتها، وقليل من الترحيب الحار بالضيوف، الكثير... الكثير من المراسم التي ترافق التعارف للمرة الأولى، وفي محاولة للاندماج الذي عكسه جو المحبة بينهم حتى ودعت الضيق، وبدأت تتصرف براحة وانطلاق.

وسط أفكارها جاء ليشتتها كذرة انشطرت للتو، ببضع خطوات والتفاتة وعطر سحق خطوط تركيزها على كلام لم تعد تدرك أهو موجه لها أم يأتيها من عالم اللاواقع...!

جمود نظرته، وانسحابه من أمامها دفعها لتفقد ملابسها وتلمُّس شعرها، لم يكن أحدهم ليمر قربها دون ضوضاء تعكس حضورها على خطواته، اختار أن يقف قبالتها، لا ليس اختيارا...، بل خطوة غير مقصودة دفعتها للجلوس على أول طاولة مرت بها تضم

عملاء تعرفهم...، استفسار عميل عن مشاريعهم القادمة لم يساعدها على تخطي فكرة وجودهما في نفس المكان.

كنسمات الربيع المتسللة من النافذة أتى ليغيب...، كمكالمة هاتفية مشوشة الكلمات، حادة الصفير، دفع اختفاؤه من المكان الذي كان يقف فيه مؤشر التوتر عندها ليتجاوز القمة.

أخفقت بترجمة أثر مروره في نفسها، وتركها معلقة في اقتصاص أثره، وأشغل عينيها في البحث عنه.

وأخيرا... وقف في زاوية يغلب على قطع أثاثها اللون البني المعتق، فأصبغت على جسده هيئة نصب تذكاري لقائد روماني ببشرة برونزية وعضلات مختبئة تحت قميص لم يفلح بسترها، انهماكه في الحديث مع فداء دفع به للتسلل إليها، انتقل من منفى إلى دولة إلى وطن، والنتائج جميعها تشير إلى أن رجولته بدأت باجتياحها، خوفا من أن تستسلم أدارت وجهها لتتابع بصمت ما كان يدور حولها.

جفلت وهي ترى نفسها تتزلج على مدرج جديد للأفكار تدور حول شخص غريب يتقن فن الانزلاق من بين الحضور بسهولة،

يدور ويدور حول الجميع... ليتابع فيما بعد ما أسمته استعراضا غير مقصود للفت الأنظار إليه دون بذل أدنى جهد منه...

انتهت رحلتها الفكرية بعبور الهدوء من أمام طاولتها، تصدت له تنهيدتها التي اختفت في آخر حروف كانت تحاول نطقها لرفيقتها، وببعض النقاط الفاصلة بين السطور، جلس قبالتها لترتشفت لغة حضوره.

حديثه مع رجل أعمال حول الفرص الاستثمارية المتاحة حاليا في البلد، وسبل تطويرها، والمشاكل التي يتعرض لها القطاع الصناعي دفعها للظن أنه منهمك في التوصل إلى طريقة للتعاون مع الرجل أمامها، وكمن يحاول أن يستحوذ على اهتمامها، غافلها بتوجيه حديثه مباشرةً إليها.

الصعوبات التي واجهها في نمو صناعته، ثم تطرقه إلى التوسعة التي يطمح إليها في شركاته، وكيف أنه يحاول أن يؤسس سلسلة خارج البلاد، ليعود ويتحدث عن استعداده لتوقيع اتفاقية عمل

مع شركتها، والاستفادة من خبراتهم في التسويق والإعلان لمنتجات شركته، صمت فجأة... نظر مباشرة في عينيها وقال:

- لما لم ألتقِ بك خلال زيارتي لشركتكم، أين كنتِ تختبئين!.

يا لجرأته، كيف استطاع أن يتحدث إليها، ويعبر عما يجول بخاطره بهذه السرعة وهذه المباشرة!

ضبابية نظراته أربكتها، طفل الملامح ورجل بكامل هيبته، بريء ومحنك، بعض دقائق بوجوده حتى أشعل في رأسها معركة لتصورات متعددة حول قصده ورغبته، مارست هوايتها في الصمت، فانسحب تاركا لها ما بقي من رذاذ تأثيره...

أجفلت عندما وضعت فداء يدها على كتفها: إياد...

- ايش؟ قالت وفاء.

- ما بتتذكريه رجل الأعمال الصعب المعقد، اللي كنتِ تشكي لي مزاجيته وطبعه المزعج...

- آآآآه تذكرته... كانت مكالمته مثل اللي رايح جهنم برجليه، مستهتر في أغلب إجاباته ومهما كان الموضوع مهما مستحيل يحكي أكثر من دقيقتين.

انطلق خيالها بجنون خلف جسد ابتلعته الأروقة، وظل صافح الأرض ثم طار ملتصقا بخطواته مباركا مسيرته...

قيادتها في طرق عمان بهذا الوقت المزدحم من المساء أخذ الكثير من تركيزها، أو أنها اتبعت أسلوبها لطرد إياد خارج دائرة تفكيرها، نصف ساعة من الفندق الواقع في جبل عمان لمنزلها في الجبيهة، لتصل أخيرا إلى شقتها في الطابق الثاني من عمارة مكونة من ستة طوابق على تل يذكرها ببلدتها "عبين".

تأخر الشتاء كعادته في السنوات الأخيرة، شهر كانون الأول بنفس أجواء شهر تموز باختلاف وجود بعض الغيوم السابحة في بحر السماء تكشف عن نجمة مختبئة وتغطي أخرى.

دخلت شقتها المكونة من غرفتي نوم ومطبخ صغير مفتوح على صالة وغرفة معيشة معا، لم تعد غادة بعد، حدثت نفسها بعد أن لاحظت الهدوء المخيم، رفيقتها في السكن تمضي الكثير من الوقت خارجاً تتنقل من شاب لآخر، أما هي فتعشق البيت، تجد فيه راحتها، تطمئن أن لا عيون حولها تترصد حركاتها وتراقبها...

رمت بنفسها على كرسي قريب، كيف يمكن أن يعمل الحب بالعكس، فينجح مع من يتخذه لعبة وتسلية، ويخفق مع من يقدسه ويحاول الحفاظ عليه.

غادة ممن يصيبهن الملل في الحب بسرعة...، هذا إن صحَّت تسميته بالنسبة لحالتها حبا!!

تعشق التغيير، لا تستطيع أن تمضي في علاقة أكثر من أربعة أشهر على أبعد تقدير، تختار رجلا جديدا قبل أن تنتهي من الذي قبله، تنصب حوله شباكها وتصيده بسهولة ومهارة، تتخطى انكسار قلوبهم دون أن تأخذها بهم رأفة ولا رحمة، تتجاهل توسلاتهم لتبقي على حبها

لهم، لكنها كمن يُلبِس قلبه ما يناسب حضور كل رجل، تقنع أي رقم منهم بأنه حبيبها الأول...

تمتهن التقلب على مزاجه، حتى يخالها تقرأه دون عناء، ترمي ما انتهى زمنه و(موديله) -حسب تشبيهها- في سلة خاصة تتبرع بها للجمعيات الخيرية التي تقوم على انتشال النساء التعيسات اللواتي يشكين من فقر المشاعر تجاههن، فرجل بقلب مكسور على استعداد للتخلي عن كل المواصفات التي رسمها لزوجة المستقبل، ويرتبط بالمتوفر على وجه السرعة لدحض حقيقة أنه غير مرغوب، كانت تقول مقهقهة عندما تنصحها وفاء بخطأ ما تفعل: أنتِ مو ملاحظة أني بحل مشكلة العنوسة بطريقة غير مباشرة، وناجحه بنفس الوقت!.

لو تعرفت غادة على حازم هل كانت ستنجح في تطبيق نظريتها عليه، أم أنه سيقلب سحرها عليها؟ آآآه يا حازم، يا وجع القلب وطعنة الحب في صميم النصيب...

موجات من الذكريات دفعت بالزمن إلى حافة الانتقال للحظة لقائها بحازم.

شاب مليءٌ بالحيوية، وظيفته معها تحريرها من تقاليد مجتمع فرض على رومانسيتها المفرطة وأحلامٍ ترتجي تحقيقها حدودا وضوابط،... حاول تغيير قناعاتها... رسم لها عالما خاصا فصّله على مزاجها، حتى جذبها لتجربة الحب الأول، لا لم يجذبها، بل سقطت فيه على وجهها...

ولعل جرأته الوقحة هي ما ميّزه عن غيره، ولفت انتباهها لوجوده، لم يكن ليتصرف أي شاب معها بحرية، كأنه يفرض سلطته على قلبها كما فعل.

ابتسمت عندما تذكرت خلافهما الأول، رفضها لتناول فنجان قهوة قدّمه عند زيارتها لمكتبه أثار جنونه وحنقه، لم تعلم للآن لماذا رفضت تناوله؟ لم يكن دلالا، بل ضيقا من تصرفاته التي أشعرتها بالحرج.

كيف أصبحت حبيبته ومن ثم خطيبته، لا تعلم! تتابع الأحداث بسرعة أرهق توقعاتها، وأشعل الشك في نفسها، اكتشافها لكثرة النساء من حوله، وتعدد علاقاته... ردات فعله الحانقة على

رفضها لمنح نفسها مساحات أوسع في تقبّل ما يبذل من جهد للوصول إليها بصدر رحب لتنعم بحلاوة الحياة، وتطلق العنان لأنوثتها، فتح مداركها على نيّته التي بيّتها لها، وأكدت شكوكها عصبيته غير المبررة بعد رفضها مرافقته لعش الزوجية وحدهما، بحجة رغبته بأخذ رأيها بغرفة النوم... ماذا لو أن الحاسة السادسة كانت نائمة في حينها، أو أنها اطمأنت لنيته؟!.

إجابتها الهادئة، ورفضها ببرود على مطالبته لحقوقه عليها كشريكة حياة، كانت العصا التي دكت البارود في فوهة بندقية الكلام البذيء الذي أصاب حبه في مقتل، قالت له مرة بيأس: مين حكى أنه الفاتحة بتعطيك حقوق المتزوجين، وبعدين ليه مصر على إني لازم استجيب لمطالبك اللي مش منطقية ولا حد بيقدر يستوعبها، إذا ظليت على نفس الموال رح تنفرني منك، والظاهر هاي اللي بدك اياه لتلاقي سبب تنهي علاقتنا.

اختناق صوته وهدوؤه المصطنع يشجعها: أنتِ ليش بتعقدي الموضوع، كل اللي أنا طلبته منك بوسه، حسستيني إني بحكيلك تعالي

نتجوز هلأ، بعدين انتِ جربي بس، ما رح تندمي، والناس اللي خايفه منهم ومن حكيهم ما رح يعرفو، ورح تظلي البنت الملتزمة والمحترمة اللي بيحلفو بحياتها وبيقدروها...

- صحيح انك مسكين، مين حكالك إنه نظرتك ونظرة الناس اللي بتهمني، أو إنه خوفي من حكيهم هو اللي مخليني ما أوافق، أنا بدي أحط رأسي على مخدتي بالليل ما يؤنبني ضميري، ولا أظل ألوم بحالي لأني سمحتلك تستغلني، وما تتعب حالك، ما رح أعطيك شي مو من حقك باسم الحب...

لسعات البرد المتسربة من فتحة صغيرة في النافذة خلفها ذكرتها بتيبس أطرافها عندما كان يسبق إلى أي مناسبة تحل ضيفة عليها، ليلتقيها عنوة، كان يتقصد إحراجها وإشعال البلبلة حولها.

لم يتوانَ عن محاولة امتلاكها، خنق حريتها، قالت لنفسها: حتى خِلتُه ظلي الذي يتبعني أينما ذهبت، وصوتي الذي أخاطب به قلبي، نظري الذي أينما صوبته لا أرى إلا وجهه وعيونه الباسمة، ولم أعد أتذوق إلا حلاوة كلامه... تنهدت بحرقة: كلمات... كلمات

ولدتّ ومتّ في كلماته، وفي الواقع أنه تزوج من أخرى عندما واجهته الحياة ببعض صعوبات كان يجب عليه تجاوزها للوصول إليَّ...

حاولت حينها أن تمنح للعبارة التي طالما سمعتها من الشباب كذريعة راقية للانفصال عن حبيبته، نية أخرى: فتاة نظيفة مثلك لا يجوز أن يدنس حياتها شاب بسوء أخلاقي...، عبارة فصلتها عن الحياة...، نطقها وحاول أن يصاحبها بدموع لا تذرف.

سوءُ أخلاقه لم يكن خافيا عليها منذ تقبلته كزوج المستقبل، طيبتها دفعتها للاعتقاد أن اعترافه بأنه (نسونجي) منذ بداية العلاقة يعتبر أولى محاولاته لإصلاح ذاته، وتصويب الخلل في أخلاقه...

إلحاحه وترديده لحاجته إليها بجانبه في مشوار توبته، كان محض كذبة صدقتها بعدما لمست منه رغبته في بناء عائلة نظيفة على أنقاض ماضٍ لا يشرفه.

لم يستطع فصل الماضي عن الحاضر في الحقيقة، إنه لم يرغب بذلك منذ البداية، وانغمس في ضياعه ورذيلته حتى بعد زواجه...

فرضت ذكراه نفسها وكأنه -حازم-، أرسلها لتشدها إلى لحظة سقوطها على الأرض مغشيا عليها، والتشخيص انهيار عصبي حاد...، لمست جبينها حيث دقَّ إصبع الدكتور عليه بانتظام لتستفيق من غيبوبة خذلانٍ قاسية، لم تكن الحبوب المهدئة لتساعدها على تجاوزها، ولم تنجح والدتها في مواساتها بفقدانه، وتذكيرها بأن انفصالهما قبل الزواج، ومعرفتها لحقيقته نعمة يجب أن تشكر الله عليها، وأن تكون درسا لها في عدم الانصياع وراء مشاعرها في المستقبل...، لم يشعر أحدهم أن مجرد ذكر اسمه يولد لديها أفكارا انتقامية...، وجاءت ردود أفعالها قرارات خسرت فيها نفسها، ودفعت بها إلى متاهات الوحدة والقسوة.

ما تشعر به الآن لا يمكن أن يكون حنينا، الجرح ما زال في قلبها ينزف، والغفران والسماح يغرقان في وحل القهر الملازم للشعور بالخديعة، ذهبت إلى سريرها، وأخرجت رسالة منعها كبرياؤها من إرسالها له عند كتابتها، لم تكن لتسعد قلبه المريض بفرصة كشف مدى حاجتها إليه، وضعفها أمامه:

راحلة أنا نحو الأمس، حيث لا أنت ولا شيء يشبهك، لا لحظات تذكرني بك، لا رائحة تشبه عطرك، ولا عيون أسافر ببسمتها كلما التقيتك... لا فنجان قهوة أسود، ولا رائحة تبغك تأخذني معها إليك... غائب أنت....

تائهة أنا... أبحث عن أي شيء يوصلني إلى تاريخ ضمني في قصاصات الأيام المتقطعة لحضورك!!

عائدة لفصل لا يسبق الخريف، ولا يتبع الربيع، لا يشبه الصيف، وليس جزءاً من الشتاء، فصل كان لي منفردا.

تشرق الشمس صباحا لأستمع لصوتك، وتغيب عندما يحين موعد نومك، تمطر عندما تمسك يدي ونمشي تحت ظلال العمر نختال على أرصفة الذكريات، أيام لم تكن ضمن أجندة سنة كان مفترضا أن تبدأني بك.

أسابيع لقائنا كانت ساعات فقط، لنحدد وقت الفراق نزِفُّه كما صغير حلمنا أن نحمله سويا، يحمل اسمك وملامح وجهي، يركض نحوك، ويدفن نفسه في حضني.

آآآه منك، ألا تعلم كم هو مؤلم أن تغيب هكذا دون أن تخبرني أين أنت، وكيف أنت؟ وأصبح أنا كمن يبحث عن أخبارك في رسوم الفنجان... وخطوط كف صافحك يوما بشوق!!

وبعد أن كنت أول من يسمع منك كل حدث يمر عليك في يومك، صرت أتلمس من الأحلام أن تطمئنني، وتطفئ النار المشتعلة في صدري.

وأرحل نحو الأمس، في محاولة بائسة لمحوك، وإرجاع الوقت لما يسبق اللقاء بك، والغريب أني وقفت الحد الفاصل بين حضورك وغيابك، وفي رحلتي للبحث عن طريقة تزيل وجودك من مخيلتي، تركتها بضعف تأخذني لأول مرة شاهدتك تنظر إلي فيها وتبتسم!

يا الله... كيف أني لم أعد أحمل له إلا مشاعر متضاربة بين النفور منه، والحزن عليه.

منظر النار يلتهم الرسالة البالية، سلام اجتاح قلبها، حملها الفُتات المتطاير أمامها إلى نفسها: لماذا احتفظت بها إلى الآن!!

هل كنت أحاول تأديب نفسي، وجلد ذاتي، أم أنني أختبر رد فعلي أمام كل ما يخصه، حتى لو كان مني إليه؟!.

شتان بين الرجلين: إياد وحازم، كل منهما شخصية تناقض الأخرى...، لسعتها النار التي أتت على الورقة، وجهت اللوم لنفسها: ما أهبلك ايش عرفك أنهم مختلفين، كلها كم كلمة حكيتوهم سوا، يعني هالكلمتين اللي حكاهم بدها تبين أخلاقه وشخصيته؟!

محاولات تعاونها مع أي شخص يعرف إياد في الأيام التي تلت يوم الحفل أرعبتها، حتى أنها قبلت بتقديم بعض الخدمات التي ما كانت لتوافق عليها سابقا لبعض العملاء غير المهمين، فقط لتسمع عنه أي خبر بطريقة غير مباشرة.

رجل يتقن فن المراوغة، قد يكون عن دراية منه لما يعتريها، فيعمد على جذبها دون عناء، أو قد يكون عن جهل منه، بسبب أحداث حياته المشوشة كما وصلها من غير واحد.

تشرق الشمس وتغرب، وكل يوم تحمل معها صورة حية له، بعض حركات مبعثرة، صورة مشوشة للقائهما معا منذ ما يقارب الشهر، ساعدها على عودتها إلى طبيعة حياتها، واندماجها من جديد:

- هذه المدة الزمنية كفيلة بمحوه كما حدث لغيره من الرجال الذين حاولوا التقرب مني.

- بس هو ما أبدى إعجابه فيكِ، هذا خيالك اللي أثرت عليه الأفلام الهندية اللي بتشوفيها كل ليلة، أبدع بتحويل كل اللي صار من مقابلة عادية لمشهد رومانسي، فعلا إني بائسة وبعاني من جفاف عاطفي، ولازمني علاج، وجهت اللوم لنفسها.

حاولت أن تمحو أثره، أن تحوله إلى نص، أن تشكله كيفما تشاء، منذ نعومة اللغة التي تصفه، إلى كهولة الكلمات التي ستعمل على استخدامها لإبعاده:

- اعتقاداتي بك لم تزل وليدة الآن، مسجونة في الذات، تحييها بعض مواقف منك، وتقتلها ردود أفعالك غيرالمتوقعة...

بدأ شعور غرور الأنثى يتسلل إليها، لو أنه حاول فقط أن يشعرني بأنه يتوق للحديث معي، أو حتى لاحقني كما فعل بقية الرجال، لما التفت إليه، أنا متأكدة.

تنظيم جدول أعمال الفترة المقبلة المزدحم خطف انتباهها، حتى طرق اسمه باب قلبها، استفزها كأنه يقف على العتبة يطلب الإذن بالدخول، كإعصار حبيس ال (الآه) يلجها ويعصف بها، يرميها بكل اندفاع الخوف من الاستسلام بين يديه فوق حروف اسمه على لوحة المفاتيح، تركت أصابعها تمزج الحروف مع الأرقام في رقصة بدائية غريبة تحاكي الفوضى التي تستهلكها.

صوت صفير فداء من بعيد أيقظها من أحلامها، أحرجتها ضحكتها:

- الله الله... الظاهر في حدا تحركت مشاعره وبيحاول يخبيها، يا الله بشري مين هوه، اختتمت جملتها بغمزة.

- عن مين وايش بتحكي؟ قالت لها وهي تغلق الشاشة أمامها بعد أن وجهت اللوم لنفسها على ترك خيالها طليقا.

- أنتِ عارفه عن ايش بحكي، ومن خبرتي المتواضعة في أمور القلب، -وكأنها تؤدي دورا على المسرح، سعلت على طريقة الممثلين-، فأنا شايفه أنكِ ركبتِ أول باص، أو تكسي، مش مهم، لقلبه اللي هوه التفكير العميق فيه.

ثم نظرت إليها بحنو: عزيزتي... إذا شعرتِ بشيء لذيذ يدغدغ قلبك فلا تئديه، دعيه يكبر حتى يحتل كامل جسدك، واستمتعي باللحظة، بعض المشاعر لا تتكرر.

- ولووو... لوين راح تفكيرك، كل القصة إنه تفكيري مشغول بالتجهيز للاجتماع بس.

ضحك فداء بصوتٍ عالٍ أحرجها: فيه علامات ما بتقدري لا تخبيها ولا تداريها، بس يصير وجهك أحمر وقت ما تسمعي اسمه، أو تشوفيه، ساعتها رح أعرف مين هوه سعيد الحظ اللي قدر ينشلك من البؤس اللي أنتِ زارعة حالك فيه زراعة.

- شو لئيمة، أصلا ما في داعي تتعبي حالك، لأنه ما في شي من اللي ببالك...

- قالت وهي تتوجه للباب: طيب، طيب احنا بنستنى وجهك يورد وبعدها بنقرر...

غطت خديها بكفيها وكأنها تحجبهما عن فداء التي أخذت بالنقر على زجاج مكتب يفصلهما، وبفرح غادرت وفوق شفتيها ابتسامة ذات مغزى.

أجمل ما حدث لفداء بعد فترات توالت التقت خلالها بمدعيات وأشباه صديقات استخدمن ظهرها مِطية ليصعدن إلى أهدافهن دون مراعاة لمشاعرها...

لم يخطر ببالها أن المرأة ذات الملامح الدقيقة الجامدة كدمية، والجدية الرسمية في طرح أسئلة متعلقة بمقابلة عمل، وإغراقها في سيل من الأسئلة الشاملة حتى في شخصيتها...

بالإضافة إلى مكانتها كمدير عام للشركة جعلها تخشاها وتحاول أن يقتصر لقاؤهما إما سريعا في الرواق حيث تمر بها فداء كأنها لا تراها، أو عندما تطلب منها ملف معاملة أنجزته بعد دراسته، ستكون فيما بعد صديقتها الحميمة.

بارعة هي في مداراة إنسانيتها بشخصية حديدية، أنيقة إلى حد الترف امرأة تشغل منصبا مهما، قادرة على التعامل مع الأزمات ومشاكل العمل بحنكة ودراية أثارت إعجابها وحنقها معا، تمنت لو أنها عملية كفداء، تقف على ركام مشاعرها لتطل على سهول الانفتاح والانطلاق، وأن تتوقف عن تهربها من أية محاولة لاحقة لترتيب لقاء بينها وبين إياد رغم ملاحقتها لأخباره، ولا تدّعي الانشغال عند اتصاله بمكتبها، وكأنها تخشى أن يسمع التوتر الذي يلعب بأوتارها الصوتية إذا أجابته: وفاء مكالمة من السيد إياد... رفعت يدها بشبه سماعة على أذنها مشيرة للسكرتيرة: أخبريه أني مشغولة بمكالمة أخرى...

الأوقات التي تشغل نفسها في التفكير بسبب تهربها منه، تضيف لها لحظات خاصة للحديث مع طيفه، هل يعلم مقدار الضياع الذي سيعتريها لو فتحت لصوته الباب!

غريبة النفس البشرية، تركض وراء البعيد، وبعد أن تصله تغير وجهتها خوفاً من فقدانه، أو حتى خوفاً من امتلاكه لها.

انسحبت مسرعة بعد أن لمحته في غرفة الاستقبال في طريقها لمكتبها، واختبأت في غرفة الملفات، تساءلت بعد أن أصبحت في مواجهة كومة من الأوراق: يا غبيه ايش صارلك؟

ضربت بباطن كفها جبهتها: هل أحتاج لكثير من القوة لمواجهة نفسي وإجبارها على التعامل معه، وإزالة كم البيانات الهائلة المتعلقة بحياته الخاصة، أم أحتاج إلى الدهاء لتجاوز المتاهة التي دخلتها بملء إرادتي، ألا يمكنني أن أتعامل معه برسمية كما كنت فيما مضى، بدلا من الاستمرار في الفرار منه؟

أخذت نفسا عميقا، فتحت الباب وتوجهت إلى حيث كان يقف... خلو المكان أفقدها توازنها... التف كاحلها، وأوشكت على السقوط لولا أنها أمسكت بمقبض باب قريب، بحثت بعينيها في الرواق وفي غرفة مكتبها ظنا منها أنه ينتظرها، تعاظمت خيبتها بعد أن أخبرتها السكرتيرة أنه غادر منذ قليل.

- كان لازم ينتظرني... كيف هيك بيروح بدون ما يشوفني!

شتمت نفسها: وليه ينتظرك، لا مو هذا هوه السؤال الصحيح، بدأت تحاور نفسها: ليه لأعطيه كل هالاهتمام، إجا أو راح أنا ايش علاقتي!

غادة فوق الكنبة أمام التلفاز وبيدها جهاز التحكم!! لم تنتبه لسؤالها: بشوف راجعة بكير.

كانت تتنقل بين محطات الأخبار، وبتأفف قالت: الظاهر أن الربيع العربي وصل لسوريا.

- التفتت بعصبية ورأت وفاء: أنتِ هون؟

- اها دخلت قبل شوي، بس أنتِ ما انتبهتِ.
- شفتي بلشت الاحتجاجات بدرعا.
- ما بعرف كيف بتقدري تتابعي محطات الأخبار، ما في خبر بيسر البال، الربيع العربي أخذ الأخضر واليابس، بس سوريا ما بتوقع يصير فيها أي شي، لأنه النظام السوري عامل قمع للشعب، وتخويف من البداية، هيه كم يوم وبتهدأ الأوضاع.
- ما لقيت شي أتابعه، حكيت أشوف أخبار العالم، حاسه مثل كأنها مسبحه وفرطت، تونس، مصر، ليبيا، اليمن... وهاي سوريا على الطريق، يمكن القيامة قربت.

أشارت لغادة بأن تفسح لها مجالا لتجلس، خلعت حذاءها بالكعب العالي.

نظرت باتجاهها ثانية: شكلك سمعتي النصيحة وبطلتي سهر؟

ضحكت غادة بكسل وأجابت: هيك اشي، مليت السهر، والمطاعم، اشتقت للشقة والراحة، نظرت إليها بطرف عينيها.

- ما اقنعتيني! أجابتها بقلق، أنتِ شفتي وجهك بالمراية، والتعب حوالي عينيكِ؟ تحكي كأنه صار لك سنه مو نايمة.

أجابتها غادة متلعثمة: حسستيني أني بدي أموت، كل القصة أنه فيه أمور لازم اتخذ فيها قرار، وبدها رواق وتفكير بعيد عن الحياة الصاخبة، وجدت رنين هاتفها حجة لتهرول هاربة إلى غرفتها، وتغلق الباب خلفها.

إعداد وجبة خفيفة للغداء أخذ منها وقتا طويلا، متنقلة بين المطبخ وشاشة التلفاز لمتابعة مسلسل تراجيدي.

المرأة التي كانت تمسك أحد أطفالها وتبكي بحرقة أشعلت الألم في قلبها، رافق الصورة صوت بكاء أخذ يعلو كلما اقتربت من غرفة غادة، توقفت قبضتها في الهواء قبل أن تدق الباب: معقول بتبكي؟

دقت الباب ونادت...

لحظة صمت ثم سمعتها تجيب بصوت متحشرج:

- ايش وفاء.
- عم تبكي؟

ردت من بين ضحكة مفتعلة عالية متقطعة: لا حبيبتي... ليش البكاء، بس بحاول أنام.

همت بفتح الباب ولكنها تراجعت: مثل ما بدك.

دقات المطر على النافذة انبأتها بتغير الجوّ في الخارج، أبعدت الستارة وراقبت الماء يجرف ما علق عليه من آهات أكوام غناء سكران لحبيبة تركته، ونزيف خطوات منسية تائهة، اختفت مع سيل المسافات.

فتحت النافذة واستنشقت رائحة الأرض البكر بكامل قوتها، أطلقت أنينا خافتا، حررت شعرها، نفضت رأسها، حركته يمينا وشمالا: اغسلني يا حبيب القلب، هبني الراحة، أصبغ على قلبي لونا قرميديا، بارك ترابا خلق منه قلبي، اهدني السلام، ودعني استريح قليلا.

ضحكات رجل طاعن في السن على جسدها الممطوط تحت المطر الغزير أحرجتها، انسحبت للداخل، جففت خصل شعرها وبدأت بغسل الأطباق، رن هاتفها الشخصي، الرقم المتصل غير مخزن، ردت بثقه:

- ألو...

قابلها صمت من الطرف الآخر.

فأعادت بحزم:

- ألو مين معي؟

جاء صوته ليزلزل كيانها: إياد...

أبعدت السماعة عن أذنها ونظرت إلى شاشة الهاتف وكأنها تبحث عن وجهه يطل منها، ثم أعادتها عندما سمعته يسترسل في الكلام: بعتذر لأني بتصل على تلفونك الشخصي، بس كانت آخر طريقه لأوصلك بعد ما جربت عن طريق تلفون شغلك وبدون فايدة.

أخذت نفسا عميقا، وحاولت السيطرة على أعصابها... خافت أن يسمع دقات قلبها المتسارعة، فوضعت يدها فوقه تهدّئ من روعه.

- ألووووا!
- لازم أروح، عندي شغلة مهمة لازم أعملها... عنفت نفسها بعد أن ضربت قدمها في الأرض: لمتى رح تظلي تهربي منه؟
- ما رح آخذ من وقتك كثير، ثم أضاف بحزم: لو سمحتِ.
- تفضل... قالتها باستسلام: بس لسى موعد الاجتماع ما تقرر...
- أعلم، وليس من أجل هذا أتصل، سأدخل في الموضوع مباشرة، أنا بحاجة لمديرة مكتب، وقد رأيت شخصيتك، وعلمت أنكِ ذات خبرة عالية في هذا المجال، لهذا فأنتِ أقوى المرشحين لاستلام هذه الوظيفة...

ثقته بنفسه، وطرحه للموضوع وكأن قبولها أمر مسلم به زاد من توترها...

- تتقنين فن الصمت، أضاف عندما قابله سكوتها...

أعادتها كلماته لتذكرها أنه على الطرف الآخر من الهاتف، قالت في نفسها: لو تعلم كم أنا ثرثارة لتعجبت من الصمت الذي يجبرني عليه حضورك.

- بعرف أنني فاجأتك، وما بطلب منك رد سريع، خذي وقتك بالتفكير، مو مستعجل... نفسي طويل، وخاصة لما أتأكد من أنه رح أحقق هدفي.

جاءها صوت انقطاع المكالمة وكأنها في حلم متقطع، تصحو خلال أهم أحداثه أكثر من مرة، لتعود وتكملها إلى أن توقف في أهم حدث فيه...

ظهوره في مداري يصيب عقلي بالجنون، يدفعه للدوران حول معطيات كثيرة يفرضها تواجدي معه في نفس المكان لخمس دقائق فقط، وطلب مني الآن أن أتقبل فكرة دراسة هذا الكم الهائل من المعطيات من خلال عرضه لعملي معه في نفس المكان، لأصل للنتائج التي تجتهد مساحات ملأتها حروف صبّها دون وعي، وتفيض من حدود وضعي في مواجهة دائمة أمامه: ماذا يقصد، إلى... لا أفهمه!!

رنّ الهاتف مرة أخرى، اعتقدت أنه عاود الاتصال، ردّت بسرعة لتخبره أنها ترفض العرض...

- ألو... وفاء، قالت والدتها بقلق...

وكأن والدتها جاءت لتنقذها من موقف حرج وضعت نفسها فيه.

- يمه اشتقتلك...
- اللي بيشتاق بيسأل، ردّت أمها عاتبة.
- بعرف إني مقصرة، بس الشغل ماخذ كل وقتي، بعدين يمه كلهن ثلاثة أيام بس اللي ما حكيت معك فيهن؟
- عارفه يعني! صحيح اللي قال قلبي على ابني وقلب ابني على الحجر.
- قالت تمازحها: أنا بنتك مش ابنك، ورح أعوضك عن عقوقي بالأيام اللي راحت.
- كيف؟

- ما بتشوفيني إلا عندك آخر الأسبوع الجاي، بس بدي نروح رحلة على الجبال...
- حاولت والدتها أن تكتم فرحتها كعادتها: أنتِ تعالي بس.

كأن ذاكرتها تُسحب بخيوط رفيعة من الماضي، لتلتقي والدها الذي لم يكن يتقبل منها الضعف كرد فعل على مصاعب الحياة، فهي الشاب والفتاة التي تساعده في ميكانيك السيارة، وترافقه إلى كثير من جلسات الرجال، حدث أن اعترض كبير في السن من عائلتهم على إحضار والدها لها مرددا على مسامعه: تجوز مرة ثانيه عشان تجيبلك ولد يحمل اسمك بدل ما وين ما تروح شايلها معك، وأشار بحاجبيه ناحيتها.

شعرت بوقع الإهانة على والدها، تخيلت أن يرد بعنف، لكنه اكتفى بالابتسام والانسحاب...

سألته ببراءة في طريق عودتها: هل ستتزوج يا أبي، لتنجب ولدا!!

حملها على كتفه وقال: أنتِ فتاتي عن ألف شاب... هذا النوع من الأحاديث يا حبيبتي كالبهارات الحارة التي تترك أثر اللسع قليلا من الوقت، ثم تغادر تاركة لكِ الشعور بأن ما حدث جاء ليقوي حاسة تذوقك للأحداث، وطبخها بعقلانية أكبر.

لن تنسى وجه والدتها الزجاجي الذي كشف كل مشاعر الانكسار والألم والوحدة عند تلقيها خبر وفاة زوجها، لم تبكي، لم تسمع نشيجها، لم تولول كباقي النسوة في حارتها، أو حتى تشد شعرها وتشرح للمشاركات بالعزاء أنها كانت تعد طعام العشاء، وبعد أن تأخر خلدت للنوم، فاستيقظت على طرقات مذعورة تخبرها أنه وجد في سيارته ميتا بعد أن أوقفها جانب الطريق، صامتة، تحرك عينيها فقط، ممددة على سريرها في المكان الذي اعتاد أن ينام عليه، لم تودعه عندما أحضروا جثمانه، والدتها تحولت بفعل الموت لجثة حية، تودّ لو أنها تدفن معه، سنة أو أكثر بعد موته لم تتقبل من أي شخص قوله أنه مات، وأنه لن يعود... هجرتها الدموع، فاكتسبت قسوة الرجال وجلدهم على العمل، وحزمهم في التربية، تعنيفها لها عندما تبكي والدها شوقا، أو

عندما تسقط وتتبعها بالبكاء، والتأكيد عليها بأن السقوط بداية جديدة للانطلاق زادها خوفا من خذلان أمها، فحبست مشاعرها داخل جسدها الصغير، وكبرت صلبة، تحملت مشاق الحياة تاركة مشاعرها في سبات حتى جاء حازم وأيقظها: الويل له، كان يتصرف كأبٍ لي عندما أصاب بالإحباط، يشدّ على كفيّ، ويهز رأسه بحنو مشيرا إلى أنه إلى جانبي، وأنني سأكون بخير!!

ذكريات من هنا... كوابيس من هناك، هكذا خاطت ليلتها بأطراف النهار.

خط فاصل أذاب العتمة بخفة وروية، في شمس صباح أشرقت على شرفة حاضر يطل على مستقبل سماؤه مشوشة بتوقعاتها، ومساحات شاسعة من أشجار اكتست أوراقها صفرة، كأنها انعكاس نتائج مسبقة لإجابات عن تساؤلات قادمة...

ارتشفت فنجان قهوةٍ مُحلى بالوِحدة... سحبتها اللحظات من يدها لتمضي بخفة راقصة باليه ترقص على أنغام بحيرة البجع لتشايكوفسكي.

تتنقل فوق درجات السلم الموسيقي بين النوتات... تداعب الأنغام صعودا، وفجأة هوت وهوت لأسفل، والأزمنة تتساقط خلفها كلما مرت عن إحداها.

فترات زمنية كاملة سقطت من اللاوعي، لتستقر على عتبات ذاكرتها.

ارتدت ملابس العمل، ركبت سيارتها وانطلقت في شوارع عمان، أدارت الراديو، قلبت المحطات حتى دغدغ سمعها صوت

فيروز: "ما فينا إلا نعد ونعد بالأيام شو ضيعنا أيام وبالأحلام شو كبرنا أحلام"

أغلقت المذياع: هذا الصباح له طعم الذكريات الممزوجة بالوجع يا فيروز، وأنا قررت أن لا أسمح لأي كان أن يسبب لي الألم من جديد.

ركنت سيارتها في موقف مقابلٍ لمبنى عملها، واختارت مكانها بين المشاة، تأملت وجوههم... غرباء تجمعم أرصفة، وتفرقهم طرقات وإشارات، تطل عليها من بطء حركاتهم في رغبتهم إلباس الوقت بعض اللامبالاة، كأنهم يركبون على أكتافه ويؤرجحون أقدامهم، يمسكون أذنيه يشدونها للخلف في محاولة منهم لإيقافه عن المُضيِّ بهم لأماكن عملهم.

- في بلدي وتجتاحني رياح الغربة، يا الله ما أقسى شوارعكِ يا عمان!

انعكاسات أشعة الشمس على زجاج سيارة قريبة تسير بمحاذاتها قطعت عليها تخيلاتها، ليغير بوجهه كل معالم الطريق، كأنما

أزهرت الأشجار، ونبتت الأعشاب، رأت الصباح يضحك مسرورا من فصل ربيع حل على عجالة، في منتصف ذهولها ورغبتها المترددة بين التصديق والتمني، كان إياد يركن سيارته أمامها.

لم تكن تعلم أن لترجله من السيارة مراسم ملكية، كما لم تكن تعلم أن شخصا قد يملك الحياة في راحة يده إلا عندما مدها لمصافحتها.

وقفت وكلها رغبة في أن تلامس كفه لتكسب بعض مباهج الحياة، ثم ترددت وفكرت في أن الرفض سيبقي على استقرارها النفسي، حتى لو كان الوقت يمضي رتيبا دون وجوده...

- يا إلهي بضع ثوان بحضوره وبدأتُ بطرح الأسئلة، وتقديم الحلول أيضا... هو رجل التساؤلات والحلول معا...

تركت أصابعها تتوحد بأصابعه في شبه قبضة كموج التقى بشاطئه بعد طول غياب، وهي الجالسة هناك على متن سفينة أفكارها، فقدت بهمسته: كيف حالك! توازنها...

تقافزت أمامها تفسيرات عديدة لهاتين الكلمتين اللتين قلَّبت مفرداتهما على نار خجلها، لتتذوقهما بطعم جديد، وتملأ صدرها برائحتهما المنعشة، هل كانتا بهذا الوقع الفريد من قبل؟ وهل حملتا معنى أشمل من: هل أنتِ بخير... أو هل تقضين وقتا سعيدا!

تسابقت شفتاها لتجيبه على استعجال: الحمد لله بخير.

بقوة لطيفة سحبت يدها من يده، وضمتها إلى صدرها لتقرب جزءاً من جسدها لامسه وتتركه يغفو مطمئنا قريبا من قلبها.

تشلنا أوقات الفرح، وتخيفنا البسمة، نستعيذ منها باستمرار، نقنع أنفسنا بأن الضحك دليل مصيبة قادمة، خوفها من أنه حلم جميل سينتهي إن ابتسمت، منعها من مقابلة بسمته بما يشبهها.

- ليه بعطي الموضوع أكبر من حجمه، وايش يعني لو كنت بحلم، قرصت ساقها دون أن تلفت انتباهه، فسرى في جسدها ألم أشعل حماسها وأنعش قلبها: أنه أمامي، حقيقي... ياربي رح أنجن.

تأمله لوجهها زاد من توترها، بحثت حولها عن استراحة قريبة ودعته لفنجان قهوة... سبقها في اختيار الطاولة... سحب لها كرسيا

لتجلس، كانت حركته بعفويتها تفوق تصورها: كيف يتهمون المرأة بأن لا شيء يُحرك قلبها، ويلفت انتباهها للرجل إلا حجم ثروته!

هذا الرجل أمامي، سحب كما هائلا من مشاعري تجاهه بحركته تلك، أخذت نفسا عميقا، بينما كان يرتب نفسه فوق نبضها، رائحة عطره شهية تسللت لأعصابِها، استنفرتها بهدوء، حتى فرضت على حواسها وجوده... وتركتها مندهشة بحضوره فإذا ما حاول أن يبتعد أيقنت أن مجرد مروره أصبح إدمانا.

- إلى أين يأخُذني؟ أنا معه مسلوبة الفكر، أرافقه إلى نفق مليء بالنور لا أرى آخره، شعور الرضا بصحبته بدأ يخيفني، هذا الرجل الجالس أمامي يجمع كل ما تمنيت.

كأن أمنياتها سقطت بالضبط وسط قلبه، وجودها معه في نفس الحيز المكاني يمنحها شعور الاتكال عليه، ينتزع منها حمل سنين مضت ليمنحها الأمل في حياة سعيدة قادمة، وجدت نفسها تراقبه بشوق فتاة مراهقة لفارس أحلامها، لا يهم إن كان يركب حصانا أم سيجيء هرولة، المهم أنه وصلها دون تأخير.

أربكتها ابتسامته الهادئة كأنه يقرأ أفكارها: ليه أنت هون؟

عاد للخلف متكئاً على كرسيه، وأخذ يراقبها بهدوء بدءاً من رأسها، متجولا في ملامح وجهها حتى أربكها، فكرت بضرورة أن تعيد ترتيب نفسها من أجله.

يتقن فن الإرباك دون أن يعلم أنه بذلك يترك في نفسي بعضا منه، وكثيرا من شخصيته.

- جئت لأسألك عن قرارك بخصوص شغلك معي.
- بهالسرعة، سألتني قبل كم ساعه بس؟ ضحكت بتوتر.

استغرقت عملية اخراجه لسجائره فترة تفوق احتمالها.

باستغراب: مندفع أنت! وإن كنت كذلك في عملك أتعجب أنك تحقق نجاحات واسعة في مشاريعك.

- بعض القرارات كالحب -نظر مباشرة في عينيها- تؤخذ على عُجالة، فإن تركتها دون المباشرة السريعة بها أصابها الفتور، كما أن

بعض الأمور لو تركتها للمنطق والعقلانية لن تتحقق أبدا، وستأخذ طريقا تبعدها عنا... أعلم أنكِ لستِ في عجلة من أمرك، ولو تركتك تفكرين ستأخذين طريقا بعيدةً عني، لهذا كان لا بد لي من متابعتك.

سكوتها كالماء يتجمد على سطح بحيرة بعد أن جاءته عاصفة حركته بقوة ثم اكتسحته موجة هواء باردة.

أشعل سيجارته فحُبست في الخيط الرفيع المحترق، نصف أعصابها رماد، والنصف الآخر يشتعل كُلما أخذ نَفَساً من سيجارته. استعادت اتزانها:

- الأمور المصيرية تحتاج إلى كثير من التفكير، والتفكير بحاجة إلى وقت، ومن غير المعقول أن تطلب مني ترك عملي مساءً ثم تأتي صباحا لتسمع جوابي!

تأمل فنجان القهوة الذي وضعه النادل أمامه، فسافرت في تفاصيل وجهه، بشرة ناعمة سمراء، عيون ناعسة، أنف دقيق وشفاه ممتلئة، شعر كقصيدة تغلغلت فيها اللغة لتسطرها أمواجا متعرجة دفعت بخيالها لأن تقترب بخبث عاشقة من جبهته بروية حتى طبعت

شمسا بشفتيها ملأت رئتيها رائحته وعادت لمينائها منتشية، تنهدت بعمق وأغلقت عينيها: لست بهذا البؤس، لا ليس صحيحا ولست أنا من تفكر بهذه الطريقة من الانحلال أبدا، وكيف أتعلق برجل لا أعرف عنه إلا القليل القليل!

فتحت عينيها فخطفها بصره، أسرها بين رموشه، أجبرها على مواجهته مباشرة، لم تقو على التحرر، حتى أنها لم تحاول، كانت حدقة عينيه تضيق وتضيق بشكل لذيذ كأنها تستحوذ عليها، لم تعرف كم انقضى من الوقت وهي محبوسة الأنفاس، حتى بعد أن رن هاتفها في الحقيبة وجدت صعوبة في الوصول إليه... كانت فداء على الهاتف:

- ألو...
- وينك؟
- في الكوفي شوب القريب.
- لوحدك!
- بس أجي بخبرك، قالت بتردد.

- أُشم رائحة موعد غرامي ، وكأنها ترى ابتسامتها الشقية من خلف المكالمة.
- مضطرة اسكر الخط ما رح أتأخر.

أنهت المكالمة وهربت لفنجانها.

- يجب أن أذهب، فداء قلقة وهناك أعمال متراكمة يجب أن أنهيها اليوم.
- لا أعلم لماذا ينتابني شعور قوي بأنك تتهربين مني؟
- ولماذا أتهرب؟

نظر إليها مطولا، وقال باندفاع:

- أتوافقين على أن تكوني حبيبتي وشريكة حياتي؟

شرقت بالقهوة وأخذت تسعل بشدة، شعرت أن كلماته تدفع بما في جوفها لتستعجلها في إعطائه الإجابة، شعور الفرح يتراقص بداخلها، يقلب رشفات القهوة يلفها لتنعش بها قلبها، ثم يرفعها عاليا برقصة سالسا سريعة ومجنونة، اطفأتها كأس الماء التي ناولها إياها، وقف إلى جانبها قلقا: أنتِ بخير؟

أيحتاج حبه إلى إذن منها! وهي المندفعة بكل مشاعرها تجاهه كأنها على موعد مرتب مع حبه منذ سنوات.

لست في وعيي، أنا متأكدة، ما كل هذه المفاجآت! هدأت بعد أن انتهى السعال: أنا بخير، بس السؤال إلك أنت: أنتَ بخير؟

ضحك بصوت عالٍ وعاد للجلوس قبالتها: بتفكري أني مجنون! بصراحه معك حق ما التقينا إلا من شهر واحد تقريبا، لكن بشعر فيك قريبة جدا مني، من أول لقاء بينا وفكرت في أننا في مرحلة عمرية تمنحنا العقلانية في اتخاذ قرار الاستمرار أو التوقف بعد فترة التعارف اللي رح نعيشها خلال الفترة القادمة، إذا حظيت بموافقتك طبعا.

أنتِ أول أنثى أفكر في الاقتراب من قلبها، لطيفة، صادقة... صمت قليلا وتابع هامسا... ومجروحة مثلي.

ودّت لو تهرب من أمامه بعد أن أصاب وترا مشدودا يكاد أن يقطع، لا يعزف عليه إلا من سبر غور نفسيتها: مجروحة؟ أشارت بالشاهد إلى شفتيها بعد أن رسمت ابتسامة عريضة: مو شايف

ابتسامتي! ثم عادت مكتفة اليدين تسند ظهرها على الكرسي بحنق طفلة...واسترسل

- ألم يخبرك أحدهم من قبل أن ابتسامتك رسول أحزان يوزع على قومه ما تحملين في داخلك من خيبات! وجهك في ملامحه الصامتة يبث الكثير من الرسائل، وما علمته عنك في الفترة القصيرة الماضية سيجعلني فخورا بنفسي إن وافقت على طلبي لنكوّن معا عائلة.

كنت مفكره أنه أنا اللي بلاحقه، طلع هوه كمان بيجمع عني معلومات... ما أهبلني، طلعنا أنا وهوه مثل طابتين في بندول.

حاولت تغيير الموضوع فقالت:

- يعني كل الحكاية أنه أسلوب لعرضك علي مشروع حُبّ فقط!
- نعم... كنت جادا، ولكن رغبتي في معرفتك بشكل شخصي، والارتباط بك، تفوق رغبتي في أن تكون علاقتنا عملية فقط، اسمحي لي بالتقدم خطوة واحدة تجاهك، وسأتكفل بإزالة تراكمات الماضي، حان الوقت لنبدأ من جديد بشكل صحيح.

تمنت لو كانت طفلة صغيرة لتستطيع وضع إصبعها في أذنها وتحركها لأعلى وأسفل لتتأكد من أن ما تسمعه حقيقيا، تلقت الكثير من عروض الزواج، ولم تشعر بجزء ولو بسيط من تخبط المشاعر الذي وقعت به الآن، كأنها برج مرتفع ضربه برق فانشطر نصفين.

- أعلم ما تعرضت له في خطبتك السابقة، وحجم المعاناة، وشعور الخذلان الذي تلا الانفصال، وددت لو ألغيتها جميعها وزرعت الأمل مكانها.
- توقف رجاءً، -شعرت بغضب داخلي- كيف قدرت أنك من يستطيع محو الألم من حياتي، ومن أخبرك بكل هذه المعلومات؟
- لا داعي للغضب، تعلمين أننا نعيش في مجتمع مترابط، لو ذكرت اسمك أمام أي شخص من بلدتكم سيقدم لي كل المعلومات التي أريد.
- مين سمح لك بالسؤال عني أساسا، ما قدرت تسألني أنا، أنت هيك أعطيت اللي سألته قصة يتسلى فيها قدام الناس، ويزيد عليها حسب خياله.

▪ بعد هروبك مني في الأيام الماضية كان لا بد لي أن ألجأ لهذه الطريقة في معرفة كل شيء عنك، ولا تخافي، فقد ذكرت أنني التقيتك في أحد الاجتماعات، وهو تكفل بإعطائي المعلومات دون أن أسأله.

لاحظ صمتها... وتابع:

▪ أنا وأنت وجهان لعملة واحدة، قد نلتقي، وأسعى لذلك بكل ما أملك من مشاعر، وإن استوجب ذلك أن أسخر جل اهتمامي لن أتوانى، وبحزم: أنا وأنت سنجد طريقنا معا، أنا متأكد من ذلك...

لم تكن مباشرته هي المخيفة، (هو رجل المفاجآت)، قالت لنفسها... المخيف أنه رجل يشكل عالما منفصلا عن باقي جنس آدم، تشابهت عوالم رجال كثر مرت بهم في حياتها، ولكنها لم تلتقي أبدا برجل عالم لوحده.

▪ فقط لو تفسحين لي الطريق لأتقدم خطوة واحدة نحوك، اسمحي لي أن أضم يدك لنكمل مسيرنا معا.

- بخوف: سأفكر في الموضوع، وبعد تردد أضافت: هذا أغرب وأسرع عرض للزواج تلقيته في حياتي... ضحكت بتوتر: أنت تعلم أن الملدوغ يخاف من جرة الحبل.
- قبل أن يغادر: بعض الوقت بعيدا عنك، وبعض الوقت قريبا منك، وأنت تسكنينهما معا...
- صافحته... وببرود مصطنع: بشوفك.

كأنه مسها سحر، وجدت نفسها أمام فداء، كل ما فكرت به أن الأرض ترفع فوقها رجلا انفردت به عن سائر بني جنسه، ليكون بهذه الروعة، يدعى إياد...

- وفاء –قالت فداء بقلق– مالك؟
- اصفعيني...
- انجنت البنت...
- اعتبريني انجنيت واصفعيني...

وقفت بتردد أمامها ثم صفعتها برفق...

- لا مش بحلم... قالت لها ساهمة.

جلست فداء إلى جانبها، ووضعت يدها تتحسس جبهتها:

- مريضه أنت؟.

استدارت وفاء وجلست بمواجهتها...

- أجفلت: وفاء ايش فيه ، ايش صاير لك!
- ما أنا مو عارفه ايش اللي صار، فكرت حالي بحلم... حلو، طلع مو حلم، تعرفي... مو لاقيه تفسير للي صار معي.
- شوقتيني... احكي ايش فيه، لو معي مرايه كان خليتك تشوفي الفرح اللي بيرقص على وجهك، يا الله احكي.

أخذت وفاء نفسا عميقا وبدأت تقص عليها ما حدث، وتراقب تغير ملامح وجهها بالانتقال من فرح إلى حزن، ثم إلى خيبة أمل، شعرت بالذنب:

- كأني غلطت، مع أني راعيت كثير كلامي، وردات فعلي؟

بتردد: إياد متزوج... قالت فداء.

هوةٌ نمت في داخلها أخذت تكبر وتكبر إلى أن ابتلعت كل ما حدث هذا الصباح: كل هالاهتمام كان كذب! يا إلهي كيف قدر

يخدعني بسهولة، حسسني أني أمنيته الأخيرة، وإني حلم غادر منامه وسكني.

- ما تبتأسي، بنعرف أنا وأنت أنك محبوبة ومرغوبة، ورح يعملوا الرجال جهدهم ليتقربوا منك، في يوم من الأيام رح يتقدملك رجل مناسب، ويدق الحب الصادق بابك.

تنهدت وقالت دامعة: المصيبة إني معجبة فيه لدرجة وقفت تفكيري بغيره.

لم تفلح فداء بتهدئتها، استأذنت وخرجت متعجلة إلى سكنها، لا تعرف كيف وصلت، وجدت نفسها في غرفتها، كلما حاولت أن تتناسى الضجر الذي يملأ صدرها وقعت ما بين التوتر والاضطراب.

تداخلت الاتجاهات الأربعة ببعضها، الشمال اختلط مع الجنوب، والشرق تداخل مع الغرب، سيول الخيبة والشك جرفت الطرقات، كومتها أمامها، تل عال يحرك الكرة الأرضية بها، تدور وتدور لا تعرف وجهتها حتى صفعتها عتمة الغرفة، أفاقت... نظرت

حولها، رمت بنفسها على سريرها... صاحت ودفنت وجهها في الوسادة:

آآآه يا إياد... ألم تجد إلا شبه إنسانة لتجهز على ما تبقى منها!

وسط موجات بكائها أعلن الهاتف عن وصول رسالة نصية، التقطته، شاهدت اسمه يسبق الرسالة، مسحت دموعها استقامت في جلستها، كأنها ترتب نفسها لتليق باستقبال كلامه:

"عشقك كالرمال المتحركة كلما حاولت النجاة منه أوغلت فيه عمقا، وكلما حاولت الشفاء منه إزددت جراحا، يا ألمي الذي أحببت، ويا أملي الذي هربت منه إليه.

غاليتي... انت في أعمق نقطة في قلبي ولا أذكر بأي تاريخ أصبحت حلمي".

- ول عليهم، ليش هيك حظي ما بنجذب إلا للكذابين، مثل كأني شجرة هرمة ما بيسكنها إلا الغربان والوطاويط؟

عصبيتها دفعتها للرد بقسوة: أرجو منك أن لا تعاود مراسلتي، أو الاتصال بي، أو حتى محاولة لقائي مجددا، اتركني بحالي.

- من أعطاه الحق في اللعب بمشاعري، آآه لو أن هناك قانونا يحاسب أمثالهم، لما ضجت صالات قلوبنا بطلبات تودهم لنا.

أغلقت ذاكرتها، ضبطت لسان حالها على وضعية الصامت، ونامت قهراً.

محاولاتها لالتقاط صورته من ألبوم الأحلام تشبه إلى حد كبير إمساك ضوء قمر في ليلة عاصفة وتثبيته ليضيء ليلتها.

الأمطار التي تساقطت في الصباح أزالت كل رواسب اليوم الماضي، هكذا ظنت لتنهي خيبتها، وتستكمل يومها، وكأن شيئا لم يكن، أفرغت كل همومها في عملها، وأنجزت المتراكم منه من أيام سابقة.

تحاشت ما أمكنها نظرات فداء المتسائلة خلال الأيام القليلة التالية، مارست بحق نفسها أعنف سياسة لإقصائه فكريا، وكبح أي مشاعر تنادي به، لكن فوضى غيابه أربك ترتيب الخطة التي وضعتها لتناسيه، رافقه رسائله التي لم تنقطع ومكالماته التي لم ترد عليها، وعزز

إحباط قسوتها مراقبته يتقدم باتجاه مكتبها مباشرة، ثم إغلاقه للباب، كل هذا حدث كجزء من تسلسل رؤيا تمنت حدوثها، وها هي تتحقق بمثوله أمامها و: ايش صاير؟ تخرج من فمه بعنف وبقسوة.

فرض الصمت نفسه ثانية بحضوره، وانسلت من يدها الأوراق بخجل لتستقر تحت طاولة قريبة في انتظار أن ينهيا معركتهما.

شدها من رسغها أثناء محاولتها لملمة الأوراق، وأجبرها على مواجهته، موجة كهرباء أرعبت حواسها، فتسابقت إلى موضع أصابعه تلهب ما حولها.

- سحبت يدها بغضب: إحنا في مكان شغل إذا مو منتبه.
- احكيلي ايش صار، ايش الجريمه اللي ارتكبتها أنا حتى تعامليني بهيك جفا وقسوة؟
- اللي بيسمع حكيك بفكر كنا عشاق وأنا غدرت فيك!

كأنه تلقى صفعة قوية على وجهه... وتابعت:

- كان فيه عرض منك، وتصرفي هذا بيعني أني مو موافقة.

- حكيتلها أنك متزوج، قطعت فداء عليها حديثها: كان لازم تكون واضح معها من البداية.

نظر إلى فداء بعتب:

- لو استنيتي شوي بس ما كنت رح أخبي عليها شي، بس كنت بنتظر الوقت المناسب.
- ما في داعي تحكي شي سيد إياد، لو سمحت تنهي الموضوع، وما عاد تفتحه معي مرة ثانية...

جرحت الغصة حلقها.

بعد أن سمعته يطلب وقتا للشرح نزلت تلملم الأوراق، حاولت أن تخفي وجهها الحزين:

- برجع بذكرك احنا في مكان شغل...

أسندت ظهرها، ووقفت أمامه بعد أن ألبست وجهها قناع اللامبالاة.

- لو سمحت تغادر.

كان من الارتباك ما دفعه لتأمل ملامحها القاسية، لم تكن بهذا العنف من قبل، أمسكته فداء من يده وطلبت منه مرافقتها لمكتبها.

نظر إليها بعد أن اقترب من الباب:

- يالقسوة قلبك وكأنه قُدَّ من حديد، لكني أعدك أنني في يوم ما سأكون ملجأك الوحيد، أقسم لك.

أخذ الطريق المحفوف بأشجار البلوط ينفرج أمام سيارتها ليفصح عن بلدة "عبلّين" في أعلى تلة مزينة ببساتين العنب والتفاح، تصل إليها عبر طريق يبدأ عند عين ماء تسمع خريره قبل الوصول إليها، تذكرت مرة كيف استمتعت بالنزول من طرف مهدّه الرجال لتسهيل الوصول إلى أسفل ما يشبه الغرفة بفتحة صغيرة في سقفها يتم انتشال الماء منها بدلو مطاطي أسود لتعبئة الجرار عوضا عن تكلف النزول.

الأرض المبتلة من مطر تساقط خلال الفترة الماضية، أنبت زهورا برية بسطت بين العشب الأخضر النابت للتو لتشكل قوس قزح أرضي بمئة لون وبمزيج من الروائح المتباينة بين القوي والهاديء.

وصلت إلى مفترق الطريق المؤدي إلى بلدة "عبّين"، قرية أكبر مساحة من "عبلّين" بأربع مرات، لم تشعر في أي يوم أن "عبين" و"عبلين" قريتان منفصلتان، كلّ مرة تعرضت فيها للسؤال عن مسقط رأسها دمجتهما معا (عبّين وعبلّين)، لا يمكن أن تؤطّر نشأتها في قرية

وتضع الأخرى على رفّ الإهمال، لا يمكن أن تعترف بفضل العين اليمين على الشمال، كان هذا جوابها عن استهجان السائل من دمج اسميّ القريتين معا...

بيوت قديمة، جبال عالية، كروم مصفوفة بعناية تحرسها أشجار التين، وتحفّ جوانبها أشجار اللوز.

كانت جدتها تحاول أن تصرف انتباهها عن التعب الذي تشعر به أثناء مساعدتها لها في أعمال الحقل، فتحكي لها قصة تسمية هاتين القريتين، واللتان تعودان للعصر الروماني، حيث منح الملك آنذاك القرية الصغيرة اسم ولده الأمير "عبلّين" وأطلق اسم ابنته الأميرة "عبّين" على القرية المقابلة.

فتعترض بضجر: ألم يجد والدهما غير قريتينا ليطلق عليهما أسماء أبنائه!

تقهقه جدتها: الخير في الأرض والبركة ترافق العمل، وقد أحبّ والدهما المنطقة واعتبرها كأولاده، سحرته فلم يقو على تركها، في

آخر قصتها كانت تتوج رأسها بطوق من الورود البرية وتقول: أنت الآن أميرة رومانية تحبك الأرض، وستمنحك سحرها عما قريب.

ماتت جدتها ومات والدها، كرهت بلدتها، تحيّنت الفرصة لمغادرتها إلى غير رجعة، حتى تحققت أمنيتها بوظيفة في عمان، سكنت شقة، أيقنت خلالها أن الأرض الخصبة في داخلها تصحرت، وأصابها الجفاف.

الحارات التي دخلتها بسيارتها أعادتها إلى طفولتها وأبناء الجيران، لم تكن ممن يفضلن اللعب مع بنات جنسها بألعاب البنات كما كانت تقول لأمها عندما تعنفها: يمه ما بستمتع بنط الحبل ولعب الحجلة، بحب النطنطة وتسلق الشجر، بدي أثبت للأولاد أني أشطر منهم.

فتردّ أمها مغلوب على أمرها: ومين رح يقنعك يا (حسن صبي) أنك أنثى، ولازم تتصرفي بنعومة!

قبّلت يد أمها ورمت نفسها في حضنها...

- منحت إجازة قسرية، ضحكت بمرارة...

فداء مارست دكتاتوريتها وأجبرتها على أخذ إجازة، واعتبرته أمرا غير قابل للاعتراض، نظرته إليها من بعيد عندما هم بمغادرة الشركة مزقت أمعاءها، أغلق الباب خلفه، ووقفت فداء أمامها لبرهة: أنت بتحبيه!

- باستسلام: مو صحيح بس أنا تعبانه هاي كل القصة.

أدارتها فداء لمواجهتها:

- وجع الحب لا يخفى على أحد عزيزتي، والنكسة تشير لك وكأنها تقول: هنا عاشقة تتمزق.

بكاؤها سيل تدفق فجأة بعد انحباس، ضمتها فداء وأمرتها بإجازة.

- أم إبراهيم بس عرفت أنك جايه عملت غداء عشانك وبتستنى فينا، راقبت شرودها للحظة: أنت منتبهة ايش بحكي؟
- طبعا منتبهة، بس تعبانة من المشوار، ما بيصير نؤجلها لبكره؟
- لا ما بيزبط، لأنه صار وقت الغداء والست مغلبة حالها.

لم يبق أحد من عائلة أمها على قيد الحياة، إبان المجزرة التي قام بها حافظ الأسد على حي المشارقة في حلب أواخر السبعينات، بفعل الصدفة والحظ فقط أمها الناجية الوحيدة من عائلتها، تحدثت لها مرارا عن مصيبتها التي قادتها للقاء والدها: جاء خالي من دمشق لحلب لزيارة والدتي ومعايدتها بعيد الأضحى، قبله بأيام لالتزامه بسفر قريب للأردن في يوم العيد، وبعد أن أمضى أربعة أيام قرر العودة، رجوت أمي وأبي أن أقضي العيد بدمشق، لم أتخيل أن يوافقا، ولا أعلم كيف وجدت نفسي في الباص إلى جانبه ألوح لهما ولأخوتي المعترضين بيدي، -آخر العنقود أكثرنا دلالا-، وكأنهم يرددونها بغضب في وجهي الآن، ويدفعونني من كتفي بأيديهم حنقا، اتفق أبي مع خالي أن يعيدني بعد شهر، ولم أرهم بعد ذلك.

أبادهم الطاغية حافظ الأسد، دفنهم وكثرا بجرافات تحت الأنقاض، -يحرق روحك يا حافظ-، لم تكن تتوقف عن البكاء إلا بعد أن تصل إلى يوم لقائها بوالدها: هالأردني ما كان قليل، تجارته بين

الأردن والشام عرفته على خالي، وأخذ يتردد على بيته، نجلس جميعنا على طاولة الطعام عائلة واحدة، لم أكن قد تجاوزت الرابعة عشرة من عمري، وكان يفوقني بسبع سنوات، هيبته دفعتني للبقاء بعيدة عنه، ترجمتي لماهية دقات قلبي المتزايدة كلما وقع نظري عليه بأنها خوف لم تكن صحيحة، حتى قال لي مباشرة ودون مقدمات في يوم التقينا صدفة عند البحرة بعد الغداء: سأتزوج منك قريبا، تقدم لخطبتي وتم الزواج ورافقته للأردن... أمها التي طالما رددت القصة على مسامعها كانت تختتمها بحكمة "الحب غير مشروط بمدة زمنية، لا يحد من توغله في أرواحنا قصر الأعوام، قد تلتقي بشخص لساعات معدودة يترك عميق أثره الذي لا ينجح به شخص آخر عرفته لعمر يطول، نهضتا إلى بيت الجارة أم إبراهيم.

أم إبراهيم التي لم تكن جارتهم فقط، بل هي بمثابة أخت والدتها اليتيمة، وقفت إلى جانبهم في أحلك الظروف وأقساها، امرأة ريفية قوية البنية والشكيمة، زوجها يعمل في تجارة الأقمشة، ولها من الأبناء الذكور ثلاثة جميعهم سافروا لإكمال دراستهم خارج البلاد،

تزوجوا واستقروا ، تردد دائما عندما تذكرهم: أنا خلفت وربيت عشان اوروبا وبناتها ياخذوهم مني، لو أنك قبلتي تتجوزي رامي -ابنها الأوسط- كان على الأقل واحد منهم ظل بالبلد، بس عنيده ورأسك يابس: ما بينفع يا خالتي، رامي مثل أخوي، تضيف كأنها تقلدها.

تبقى المرأة قوية حتى تفقد أحد أبنائها بعدا أو موتا، فكيف بها تفقدهم جميعا وتهبهم مرغمة للغربة.

- هالبيت بدون أولاد مثل مقبرة الأحياء، بيرجع أبو إبراهيم بحطله العشاء بتعشى وبنام بكير مثل الجاج، لا ولد يؤنس، ولا طفل يملي البيت صراخ.

حضنتها بقوة: هلا بالغالية، نورتي البلد، دورت جسدها أمامها متفحصه: ليش نحفانه هالقد، ما بيطعموك أهل عمان؟!

تعالي عامليتلك ورق عنب اللي بتحبيه، كلي واتغذي بدل ما أنت مثل العصاية بيخاف الواحد يلمسها تطق.

أم إبراهيم عفوية، لا تخفي ما في قلبها، تعبر عن غضبها بدون مراعاة حتى توصل رسالتها، وتعود في اليوم التالي تزور من أغضبتهم وكأن شيئا لم يكن.

ضحكاتهن فرحا بقدومها، دعوة صريحة للجدران للتصفيق على رأسها، حتى ابتسامة المجاملة تحولت إلى ما يشبه فتح وجهها بأداة حادة تؤلمها، بدلا من أن تدخل السرور لقلبها.

عامت في الفراغ، وأخذت أصواتهن تبتعد رويدا رويدا: ايش بيعمل هلأ؟ معقول ما يرجع! يمكن خوفته مني، مهو الغبية بتظل غبية، ايش كان رح يصير لو سمعت، ايش بده يحكي، لو أعطيته فرصة! التردد بيزعزعني وبيحطم أي حد بيحاول يتقرب مني، وهيني خوفته.

شعرت بلمسة دافئة فوق يدها، نظرت إلى أمها ثم إلى خالتها، التي وجهت لها سؤالا:

- آسفه الظاهر شردت؟
- ما اتصل فيك حازم؟

لم تكن تحتاج فوق جبال أفكارها المتراكمة قشة حازم ليسقط لسانها في فمها، قلبت نظرات حزنهن عليها صفحات الكتاب حتى وصلت لفصل نهاية حكايتها معه، حيث راقبت سيارته تغادر ساحبة معها الضوء ليعود من جديد إلى جسدها في نقر إصبع طبيب المستشفى فوق جبهتها.

شعرت بالهمهمات تملأ حواسها بالحنق، ها هن يصوبن نحوها فوهات شكوكهن.

- أجابت بحزم: لا، ليش ليتصل، ما احنا انفصلنا وانتهينا من هالقصة.

نظرن في وجوه بعضهن، شعرت بأن هناك خطبٌ ما، شكله صاير شي جديد ما بعرفه؟

بتردد قطرات الماء المتسللة من صنبور قديم، قالت خالتها: حازم مريض، معه الورم الخبيث الله يعافينا.

يالانتقام القدر كيف جاء قاسيا، حتى وإن شعرت تجاهه بالكره في وقت ما، إلا أنها لم تفكر في يوم من الأيام بأنه من الممكن أن يموت: بتمزحي صح!

بعد أن لاحظت الوجوم: لا ما بتمزحي يا ربي عفوك، بشفقة: كيف نفسيته ووضعه الصحي، أكيد بيعاني وتعبان، مهو ما عنده جلد على التحمل، طول عمره مدلل؟

- حنونة، حتى لو كان ظالمك بتاخذك الرأفة عليه، قالت خالتها.
- مين اللي ما غلط بحياته، يعني أنا اللي ملاك؟ لا والله ما أنا ملاك، غلطت أكثر من مرة بحياتي، كل واحد فينا حتى لو كان طيب إلا أنه بيحمل جانب مظلم، تمنيت في فترة من الفترات أنه يموت، وكأنه ربنا يعذبني بشعور الندم على هيك أمنية، صمتت فجأة: ربنا يشفيه.

- بس هوه ما غلط بحق حاله، قاطعتها أمها بقسوة، لما يستهتر بمشاعرك ويخدعك مثل اللي ذبحك، وهاي جريمة ولا يمكن تسامحيه عليها، أنا مش مسامحيته.

في المساء دخلت والدتها، وقفت قريبا من الباب، كانت مستلقية على سريرها: ما كنت حابه تعرفي عن حازم، ما بتخيل ترجعي تتوجعي مرة ثانية، هوه استغل طيبتك وفهمك أنه بحبك، مش مستوعبة كيف أجاه قلب يتقدملك وهو ما بده يتجوز، واحنا أعطيناه الأمان وصدقناه، استغل أنك يتيمة وحاول يستغلك، وأنت هلأ بتسامحيه؟

- كنت رح أعرف سواء هلأ أو بعدين يمه، حزنانة عليه بعد ما صار عنده عيلة وأولاد مثل ما كان يحلم، أجا المرض ليسرقه منهم هيك، -وفركت الإصبع الأوسط والإبهام ليصدر عنهما صوت-، مثل كأنه المرض أنهى حياته وهو لساته عايش وبيتنفس، رح يقتله الخوف قبل ما يقتله المرض.

- ما بتمناله الموت، بس بتمنى يذوق من نفس الوجع اللي ذوقك إياه.
- بعرف أنك قاسية، بس ما بصدق أنك حقودة.
- ليس حقدا، إنما هو وجع الفقد، ولا أحد يشعر به إلا من يعانيه، فكيف بحبيب يتركك بكل سهولة وينام في حضن أخرى.

لم تسمع صوت الباب الذي أغلق خلف أمها، لم تلحظها وهي تغادر، كان إياد يطل عليها من شباك ذاكرتها... يمسك رموشها ويرفعها للأعلى لتبصر وجهه، يزيح الظلام... يختار مقعده فوق المكتب القريب، ويبدأ في تأملها، دفنت وجهها تحت الوسادة فاحتضنها طيفه، طوقها بين ذراعيه بدفء، شدها إلى أعماق جسده، لف شعرها بين أصابعه يشمه... ويطبع خلف أذنها قبلة ما قبل النوم.

هزت كيانها دغدغته، تذكرت زوجته فأبعدته عنها، لكن الدغدغة استمرت بسحبها إلى أن أيقظها رجاج الهاتف تحت وسادتها، عدلت جلستها، اسمه يتراقص على الشاشة: أترد أم تتركه معلقا؟ لماذا لا تمنحه فرصة للحديث!

تأخرت بضغط زر الإجابة، وجاءت ملاحظة تعلن عن مكالمة فائتة، بدأ ضوء الشاشة يخبو آخذا معه أملها في أن يتصل ثانية: هل أطلبه! لا... لا لن أفعل.

همت بوضع الهاتف تحت المخدة ولكنه دغدغها ثانية معلنا عن رسالة، فتحتها بسرعة: أعلم أنك مستيقظة، لقد شعرت بك، أجيبي مكالمتي، سأطلبك عند انتهائك من قراءة الرسالة.

شعور غريب رافق الهاتف في تحركه مع طلبه لها مرة أخرى، كيف علم أنني استيقظت، كيف شعر بي؟

- آلو... قالت بهمس.

قابلها بتنهيدة سكنت وسط أذنها، ظنت أنه لا يسمعها، أعادت:

- إياد ، آلو...

لحظات من الحديث الصامت، كلاهما يقرأ الآخر عن بعد، تتخيله يقول لها: لما القسوة؟

فتجيبه: رد فعل طبيعي لخيبتي فيك.

- لن أبرر، كان إخفائي لحقيقة زواجي خوفا من أن أخسرك قبل أن نبدأ.
- بخوف: زواجي.
- قاطعته: هاي حياتك الشخصية.
- أرجوك دعيني أكمل...

إياد يرجوها... لا تحب أن تلمس ضعفه حتى أمامها، دمعت عيناها.

- لم يقدر لزواجي الاستمرار، منذ عام تقريبا وأنا منفصل عن زوجتي، أجلت البت في الطلاق للمحافظة على سمعة العائلة السعيدة التي حاولت أن أبقيها كذلك أمام المحافل الراقية والمجتمع المخملي، ولكن في الحقيقة أنه زواج فاشل يقوم على تمثيل أحد الأطراف بالسعادة، ويستمر الآخر بالابتزاز المالي، وجئت أنت في ليلة قررت هي أن لا ترافقني بسبب توقفي وتصميمي على أن لا أدفع لها المزيد من النقود، التقيتك، لو تعلمين ماذا فعلت بي تلك الليلة!

كأنه يستعيد اللحظة: ابتسامتك الخجولة أشعرتني بتفاهة تمثيليتي، لهذا وبعد أن علمت عنك ما علمت، ورأيت شجاعتك بقولك لا لمغريات الحياة التي تحاول تغيير مبادئك، رغم أنها حلول لكثير من مشاكلك، قررت المضي قدما في طلاقي.

بدورها رفضت الطلاق السلمي، فلجأت للمحكمة، أخشى أن تطول المدة، فمثل هذه القضايا قد تأخذ عاما أو أكثر، خاصة بعد مهاجمتها لي في كافة الأصعدة، ومحاولتها الحصول على جزء كبير من الثروة بتقديم أوراق ثبوتية تثبت أن قسما كبيرا من ثروتي يعود لها.

أعلم أنك تكنين لي المشاعر، حتى دون تصريحك بذلك، لن أقول أنني رجل كامل دون أخطاء، جميعنا نخطئ، ساعديني لأقف من جديد متجاوزا فشلي الذريع في الاختيار.

ولما تصدقه! قد تكون كلّ قصته مع زوجته وليدة اللحظة ليستميل مشاعرها، ثم ما الذي يثبت لها صدقه، لماذا لا يكون هو سبب المشكلة وليست زوجته! في محاولة لإبعاده:

▪ لست بحاجة لزوج يفرض كامل تفاصيل حياته علي مطالبا إياي بالتنازل عن حياتي لأجله، بقدر ما أنا بحاجة إلى رجل يحتويني بحزني قبل فرحي، بكآبتي قبل جنوني، رجل يساندني بقراراتي ويعزز طموحي...

قاطعها:

▪ وافقي، تحرري من هذه الظنون تجاهي، سأكون الأمان الذي تلجأين إليه، والدك الذي فقدت، وحبيبك الذي لن يتخلى عنك أبدا، فقط انطقيها... قولي نعم وسأحميك حتى مني، سأكون وطنك.

منذ متى كانت نعم بهذه السهولة! ليست بهذه السذاجة أكيد، ولنفرض أنها كذلك، فعلى ماذا تقول نعم؟!

تخبطت، وجدت نفسها معه وبعيدة عنه في آن معا، مغامرتها في منح حازم فرصة لم تورثها إلا الخيبة والخسارة، لكن الحياة ليست بهذا السوء، قالت لها والدتها ذات مرة: ليس كل الرجال واحد... وحازم أبشع من مثلهم.

- إذن... من يمثل الرجال يا أمي إن كانت تجربتي لا تعكس حقيقتهم، وإن كان حازم قد حاول انتهاز فرصة تمكنه من الحصول علي، وبذل نفسه من أجل تحقيق مآربه مني بطريقة بشعة؟!

نعم من ثلاثة حروف لا تحتاج إلى كل هذا التفكير، رجل الإرباك عاد ليهز الأرض من تحتها.

لكن (نعم) في هذه الحالة مدمرة إن لم تكن في مكانها الصحيح، لن أشرع بابي مرة أخرى للصقيع ليجمد أعماقي، الدفء القليل الذي يسكنني هو سبب بقائي حية المشاعر حتى الآن.

لماذا تحاولين إقناعي بأن حصولي على قلبك صعب؟ وأن عقلك موجه فقط في اتجاه واحد، كفرس في مضمار وضع ما يحجب نظره إلا عن الهدف الذي يسابق الآخرين للوصول إليه، دعي روحك تتنفس، أطلقي العنان للطفلة في داخلك، لن أؤذيك، وإن شعرت بسوء سيصيبك بسببي سيسبقه انسحابي من حياتك، وهذا ما لن يحدث، أنت أنا هل تفهمين!

وعوده نابعة من القلب، دفعت مقاومتها للانسحاب مفسحة للهفة طريقا: نعم.

أعماقها تمردت وأعلن صوتها الخافت ولاءها، منذ متى كان الحب مضمون النتيجة؟

صباح حلو المذاق بوجه أمها البشوش، وفنجان قهوة يرافقه من يدها وسط أزهار ونباتات زينة حرصت أمها على وجودها والعناية بها على أطراف حوش بيتهم الواسع، على يمين الجلسة شجرة جوز ظليلة وشجرة لوز، وعلى الشمال شجرة لوز أيضا، وبينهما مقاعد وطاولة، تحيط بها عصافير مغردة بأصناف لا تميزها، رغم كل ضوضاء الطبيعة حولها، إلا أنها شعرت بالهدوء والسلام، انسلخت عن واقعها واستقرت في خيالها مع إياد.

- تأخرتي في النوم!
- من كثر تعبي بالفترة الماضية.
- بس...! فراسة الأم تعمل بأقصى طاقتها هذا الصباح.
- حاولت تغيير الموضوع: ما بدك تردي علي وترحلي معي على عمان، ما ظللنا حدا هون إلا الجارات، وبنقدر نزورهم كل ما اشتقتيلهم.
- أنت اللي ما بدك تنسي هالموضوع، أنا هون مرتاحة، المدن وجوها ما بيناسبني، على الأقل بس أزهق بطلع على الحوش، خضار وهوا نقي، في عمان وين بدي أسكن... بشقه قدامها عمارة ووراها عمارة، خليني هون... على الأقل أنت ما بتتركي بلدك، وبيظل فيه سبب يرجعك.

حاولت الكلام فتعالى النداء لصلاة الجمعة من مآذن مساجد القرية، المسجد الكبير في وسط "عبّين" على أعلى تل في البلدة تراه من

أي مكان، تميزه مئذنته العالية جدا، جاءت أم إبراهيم وجلست معهما بعد أن خرج زوجها للصلاة: شفتو التلفزيون اليوم؟

- لا قبل شوي صحيت وفاء،وأنا انشغلت بالبيت، خير؟
- حكو أنه السوريين طالعين مظاهرات من درعا ودمشق وحمص وبانياس ومسمينها (جمعة الكرامة)، حتى أنهم كاينين يهتفو "الله سوريا، حريه وبس"...

نظرت إلى وفاء:

- أنت ما سمعتي يا خالتي بهيك شغلة... لأنهم بيحكوا أنه الاعتراضات بلشت على ايش اسمه هذا البوك؟
- "الفيس بوك" يا خالتي، فعلا بعض الشباب السوريين قاموا بإنشاء صفحة على "الفيس بوك" بينادو من خلالها بالثورة على النظام السوري بما يسمونه الربيع العربي.
- أنا شايفه أنه صار جليد عربي، انهيارات عربية مش ربيع ولا بيقربله، كل الثورات كانت نقمة على بلادها، وبدل ما تتحسن الأحوال في بلادهم انقتل كثير منهم... ربنا يلطف فينا...

استرسلت أم إبراهيم موجهة الحديث لوالدتها:

- ما حكيتي مع بيت خالك بدمشق تطمني عليهم؟
- اتصلت قبل يومين وحكتلي مرت خالي حسن أنه ما في شي يخوف، كم يوم ورح ترجع الأمور تهدأ.

صوته الذي حمل كما هائلا من السخط والحزن نشلها من بين سطور رسائل غسان كنفاني لغادة السمان: ماذا تفعلين؟

- أقرأ رسائل غسان كنفاني لغادة.
- قرأت ذات مرة عبارة من هذه الرسائل وعلق في ذاكرتي يقول هذا المقطع: "إنني أحبك كما لم أفعل في حياتي، أجرؤ على القول كما لم يفعل أي إنسان وسأظل".

أشفق عليه غسان، أحبها بجنون، وأظن جازما أن غادة كانت تحاول إرضاء غرور الأنثى في داخلها عن طريق استنزاف مشاعره على الورق ومن خلال رسائله لها، ومع أنها أجابت بعض رسائله كما هو واضح، إلا أنها كانت تفعل ذلك بقليل من الاهتمام، تدفعها الشفقة في بعض الأحيان، تمنيت لو أنني قرأت ردودها.

"أتعاون معك على مواجهة كل شيء، وأضع معك نصل الصدق على رقابهم"، كانت العبارة تتراقص أمامها وكأنها تطلب منها أن تختارها لترد عليه، صمت قليلا وكأنها شعرت به يبتسم، قالت: المرأة عندما تحب رجلا لا تنتظر منه أن يبذل جهدا كبيرا للوصول إلى قلبها، وقد تقدم له الكثير من التسهيلات، وتقوم بكثير من التنازلات ليصلها بسهولة، نعم بعض النساء يتلذذن بتعذيب من يبذل جهدا لاستمالتهن، ولكنها لا تفعل هذا مع من تحب، أتعلم... سأهديك نسختي عندما أعود إلى عمان، والآن أخبرني ما سبب هذا الحزن في صوتك؟

- لا شيء مجرد إرهاق، خانته تنهيدته: متى ستعودين اشتقت لك؟
- لا تغير الموضوع هيا أخبرني.
- زوجتي تتصل بمعارفي وأصدقائي وتدّعي بأنني ضربتها وشددتها من شعرها، أتصدّقين أنني أفعل مثل هذا بها، وإن فعلت...

لماذا لم تشكوني للشرطة، لا أعلم ما هدفها، ولماذا تقابل كل ما بذلته لأجلها بهذا الجحود والنكران؟

حاولت أن تتكلم:

- أتذكر أنها في يوم غضبت مني ولم أعرف السبب الذي دفعها لشتمي والصراخ في وجهي، ومن ثم غادرت المنزل إلى بيت أختها، ساءني أن تبقى غاضبة رغم أنها من أخطأ بحقي، وهي من يجب عليها الاعتذار، لكنني رأيت أنه لا فرق بين الزوج وزوجته، وأن هدية بسيطة قد تجذب قلبها ناحيتي فنصل معا إلى تسوية لمثل هذه الخلافات التافهة، والحد منها ما أمكن، أهديتها طقما من الماس، أتصدقين! من يقدم مثل هذه الهدية لزوجة متمردة، لا أحد... أعلم وأعلم أنك ستقولين أن ما فعلته لا يعد من تصرفات الرجولة بشيء، وأنه كان يجب علي معاقبتها بالهجر بدلا من إهدائها أي شيء، حتى وإن كان بسيطا، وفي هذا أوافقك، وكأنني كنت أسعى لأن ترضى عني لأنني

مهما قدمت لها، ومهما تصرفت معها بلطف، لم تقابله إلا بالغضب والسخط، وهذا أشعرني بالنقص.

- ما الذي دفعك للانفصال إذن؟ من الواضح أنك تحبها ولا تستطيع التخلي عنها.

حاولت أن تتحدث معه بعقلانية، وأن تسمع منه اعترافا بأنها لم تعد تسكن قلبه.

- ساءت أخلاقها أكثر من ذي قبل، حتى أنها في إحدى المرات حاولت ضربي، ووصفتني بالجبان المتخاذل، لم أتمالك نفسي، وثارت علي رجولتي، وتملكني الغضب لدرجة أنني أمسكت برقبتها وألصقتها بالحائط وضغطت عليها حتى ازرق وجهها وجحظت عيناها، ورأيت فيهما نظرة الخوف والتوسل...

رجاؤها وتأسفها لي في تلك اللحظة كان كفيلا بإخماد النار المشتعلة في صدري، فصحت في وجهها بعد أن أفلت قبضتي: هذه آخر مرة تتجاوزين فيها حدودك معي، وستدفعين ثمن كلّ كلمة وكلّ فعل قصدت من خلاله الإساءة لي.

أخافني إيقاظها الوحش في داخلي، فذهبت اليوم التالي إلى المحكمة لأطلقها، ولكن القاضي طلب مني أن أتروى وأن أراجع نفسي، أعلمتها بقراري فضحكت بهستيريا وعلقت شامتة: لن تستطيع التخلي عني، لقد اعتدت العيش بذل.

متى كان التنازل باسم الحب ذلا، والتضحية ضعفا، ولكنني فعلا هنت على نفسي فهنت عليها، خاصة عندما اقتنعت أو ادعيت اقتناعي بأن الحمل والولادة سيؤثران على رشاقة جسدها، ولا داعي للأولاد في حياتنا.

تخليت عن حقي في الأبوة ليبقى جسدها رشيقا، أي جنون هذا!

- هذا ما يسمونه الحب...

قالتها وفكرت: لماذا لم ألتقيك من قبل! كيف يكون النصيب بهذه البشاعة، أنا أتعلق بحازم فيذبحني، وأنت تتعلق بزوجتك فتحرقك، حتى أنه لم يذكر لي اسمها.

- ما اسمها؟
- عنود، وكان لها من كل اسمها نصيب، لم ألتق في حياتي من هي أعند أو أكثر جرأة ووقاحة وسوء تربية منها، دلال أبويها أفسدها.

شعرت بوخزات تجتاح جسدها، وبرأسها يثقل فوق رقبتها، رفعت يدها وأخذت تدلك التشنج الذي يحول دون تدفق الدم من أوردتها إلى رأسها، شعرت بحاجة قوية إلى تغيير الموضوع وسحبه من ذكرياته إلى واقعها:

- أين أنت الآن؟
- في السرير.
- طيب أغمض عينيك.
- ضحك : هل ستغنين لي.
- صوتي بشع، ضحكت: سأقرأ لك حتى تنام.
- هل ستفعلين حقا!
- نعم فأنت من الآن وصاعدا طفلي المدلل، ولن أدعك تنام وأنت مكدر الخاطر، سأقرأ لك في كل ليلة حتى تغفو.

- حسنا، ماذا ستقرأين؟

- إحدى رسائل غسان لغادة... وهي من أحبّ الرسائل إلى قلبي، ففيها عبر غسان لغادة عن مدى حاجته لها، وأهمية وجودها بقربه، ومنها أعبر لك عن مدى أهمية وجودك في حياتي:

"عزيزتي غادة... مرهق إلى أقصى حد، ولكنك أمامي، هذه الصورة الرائعة التي تذكرني بأشياء كثيرة، عيناك وشفتاك وملامح التحفز التي تعمل في بدني مثلما تعمل ضربة على عظم الساق، حين يبدأ الألم في التراجع، سعادة الألم التي لا نظير لها، أفتقدك يا جهنم، يا سماء، يا بحر، أفتقدك إلى حد الجنون، إلى حد أضع صورتك أمام عيني وأنا أحبس نفسي هنا كي أراك".

قاطعها:

- أنت في حياتي كغادة في حياة غسان، لن أقول كطريقتها في إذلاله... فأنت رقيقة وبريئة إلى درجة تخيفني عليك مني، ولكنك نبض وليد يكبر كل يوم في مجرى دمي، تصبحين على خير وفائي.

- تصبح على خير.

حملها اسم الدلع بعيدا إليه، لم تكن تتخيل في يوم أن لها أكثر من اسم دلع، كانت تتلذذ به من شفاه والديها "فوفو"، والآن لن تتخيل أن يكون اسمها من شفتيه إلا "وفائي" بصيغة الملكية.

سطرت في أول صفحة من الكتاب "في حياتي غسان"

لم تتوقع أن تنضج مشاعرها تجاه إياد خلال أسبوع قضته متنقلة مع والدتها من منزل جارة لأخرى، خلال نهار لا تخلو دقيقة منه من رسائله النصية التي تصبغ وجهها باللون الأحمر، مما دفع والدتها لأن تنبهها: أخشى أن يؤذيك كما فعل غيره، عندك سوء اختيار يبنى على حسن النية.

- إنه مختلف يا أمي، ألم تقولي لي أن الرجال ليسو كلهم سواء؟
- نعم... ولكني أخاف من علاقة نهايتها انكسارك يا ابنتي، ومن واجبي كأم أن أحذرك، كوني حريصة على أن لا تسمحي له بالتوغل كثيرا في تفاصيل حياتك، اتركي بينكما مسافة أمان... حتى لو ابتعد... لو فكر في الهجر، لو فكرت أنت أنه غير مناسب، لا تفقدي ما تبقى لديك من أمل بأن الحياة بدونه جميلة.
- لا عليك، سأكون حريصة على نفسي، يكفيني ما عانيت في علاقتي السابقة، لن أسلم قلبي له هكذا بسهولة...

ابتسامة الشك التي قابلتها بها أمها رافقتها في كثير من أحاديثها معه، لم يكن يتركها تتحرك دون أن يكون جزءا من خطواتها: هل أكلت، كيف يطاوعك قلبك على النوم وأنت تعلمين أني أسهر أفكر بكِ.

ومتى استيقظت تلقفها صوته: صباحي أنت يا جميلة.

كل هذا الاهتمام رفعها إلى السماء، شاهدت نفسها تحلق بعيدا عن الأرض ويدها في يده، تعلقت به حتى أصبحت تخشى أن تنام كي لا تفلت منها دقيقة لا تجمعهما.

كتب لها يوما على صفحة الفيس بوك: "أنت ما أنت... كالطفولة، كالأزهار الندية، كالأحلام المخملية، كالدفء، كالأعياد، كالدفاتر المدرسية المحملة بالأشواق البريئة.

أنت يا فراشتي الجميلة، حطي... طيري... تنقلي، كل الزهور لك، كل الزهور التي تفتحت على مهل، أينما ذهبت وسافرت من حديقة لأخرى، حديقتك أنا... زهورك أنا، عطرك أنا.

حتى أحلامك أنا أغزلها لك من أشعة الشمس، ألونها من قوس قزح، لتكون إكليلا لا يليق إلا بك".

أوهمت نفسها أنها تحاول إقناع أمها بأن شعور قلقها غير مبرر، وأنها لا تغرق في حبه كل يوم أكثر، حتى فاتحتها أم إبراهيم بأمر عريس مناسب لها، يعمل في إحدى دول الخليج، ردها كان عنيفا، اهتزت ملامح أم إبراهيم لما تلقته من نبرة صوتها الحادة والغاضبة: أنا لا أفكر بالزواج، وحتى لو فكرت... لن يكون بالطريقة التقليدية، لا أتخيل نفسي أجلس قبالة رجل غريب لا أعرفه، زكى لي أحدهم حسن أخلاقه... وتحدث لي عن أسلوبه في الحياة، لأقرر فقط من حديث يغلب عليه المجاملة والتمثيل من كلا الطرفين بالقبول ليصبح رفيق الدرب لبقية عمري بعد القليل من الأيام، أي أسلوب زواج هذا؟

- تجاوزتي حدودك وفاء، نهرتها أمها.
- أنا وكل نساء القرية تزوجنا بهذه الطريقة يا ابنتي...

صوتها الهادئ أشعر وفاء بالحرج، فتداركت نفسها قائلة بلطف: كنتم جميعا تعرفون بعض، لم يكن الغريب إلا من طرف نفس العائلة، الوضع الآن اختلف، وقضايا الطلاق تملأ المحاكم، هناك من تتزوج لأسبوع... وهناك من تعود لأسرتها بعد عام مع طفل ذنبه اختيار خاطئ مبني على جلسة أو اثنتين تم على أساسها الزواج.

- يعني بدك تقنعي نفسك أنه الزواج بعد علاقة حب ما بينتج عنه طلاق؟ سألتها أمها بحدة.
- بلى، التغاضي عن سوء أحد أطراف العلاقة، وعدم الأخذ بالإشارات التي يرسلها لنا الله بأن هناك أمرا خاطئا بمحمل الجد... فقط من أجل الحب والزواج ينتج عائلة متضعضعة من البداية، ويقود كثير من العلاقات للطلاق.

ودعت أمها وأم إبراهيم وانطلقت عائدة إلى عمان.

- وفاء وين صرتي.
- على مشارف عمان، ليه؟
- بدي أشوفك.
- الوقت متأخر خلينا نؤجلها لبكره.
- رح استنى قدام شقتك، لم يترك لها مجالا للاعتراض: ايش رأيك؟

كيف ترفض وهي التي تعجلت عودتها لعمان لتشبع نهم قلبها من محياه:

- طيب اوك.

أمام منزلها ينتظرها عمرها القادم بكامل شروقه، داست على البنزين لتنطلق السيارة بسرعة جنونية، تجاوزها عن السيارات كان عنيفا، ضحكت بصوت عال، وأطلقت لصوتها العنان لتندمج مع أغنية انطلقت صاخبة من المذياع:

"وبينا معاد لو احنا بعاد

اكيد راجع ولو بيني وبينه بلاد

قصاد عيني في كل مكان".

تجاوزت الإشارة الضوئية الحمراء، لن توقفها عن الوصول إليه، صاحت هيا عمرو لنكمل... عادت لتغني:

"ومش قادر على الأيام

ولا يوصف هوايا كلام

وطول ليلي ولما بنام

قصاد عيني"

بدأت الألوان حولها تتغير، امتزج سواد الليل بالأحمر، ومن ثم الأزرق، تتابع ظهورهما، ومن ثم علا صوت سيارة شرطة تطلب منها التوقف إلى جانب الطريق: أنا مستعجله ما بيقدروا يستنو لبكره ويبعتولي المخالفة على مكتبي! يا إلهي.

- مساء الخير يا آنسة... قال لها الشرطي.
- مساء النور.
- لو سمحتي رخصتك ورخصة السيارة.
- خيرا إن شاء الله! سلمته الرخص.
- ما انتبهتي أنه الإشارة كانت حمرا لما قطعتيها؟
- بلا مبالاة : إمبلى انتهبت.
- رفع حاجبيه وهو يقلب رخصها بين أصابعه: ومع هيك قطعتيها، ايش هالاستخفاف بالأرواح هذا!
- كنت مستعجلة و... قاطعها رنين هاتفها، أمسكته كان إياد... لم تستطع التحدث أمام الشرطي فضغطت على رفض المكالمة.
- قال لها الشرطي مبتعدا: راجعينا على قسم الشرطة بكره.
- أرادت الاعتراض... آآآه لو يعلم أنه ينتظرها، كان سيتفهم أكيد: أطلت من شباك السيارة: هل يمكننا أن نتفاهم.
- قال لها دون أن يلتفت ناحيتها: بدون كثرة كلام، سنتفاهم غدا في القسم... لا أعلم بماذا فكرت وأنت تتجاوزين الإشارة الحمراء!

عاد الهاتف للرنين:

- ألو إياد.
- تأخرت أين أنتِ؟
- أوقفني الشرطي وسحب الرخص مني، تخيل لأنني تجاوزت الإشارة الحمراء، أتصدق أنه سحب رخصي لهذا السبب.
- وفاء... هل قطعت الإشارة حمراء؟
- ضحكت نعم ألم تجربها، تمنحك شعورا رائعا بالانطلاق، وخاصة عندما تطلق العنان لصوتك تغني وتضحك وربما تحدث نفسك، رائع فعلا.
- لا تتعجلي بالعودة... ما زلت بانتظارك، لا داعي لأن تقودي بسرعة هل فهمت.
- هل أنت غاضب! كان صوته غير مطمئن، وكأنه يكز على أسنانه.
- سنتحدث عندما تصلين.

شاهدته يسير تجاهها وهي تركن سيارتها أمام المنزل، أخافها اندفاعه، وألصقها بكرسيها دون حراك... فتح باب السيارة بعنف وسحبها من يدها، أمسكها من كتفيها وصرخ في وجهها: أنت مجنونة، كيف بتفكري، أو أنك أصلا ما بتحركي عقلك قيد أنملة، يعني أنتِ ناوية تقتلي نفسك، فهميني! يا إلهي... كم مرة قطعتي الإشارة حمراء...

بقيت صامتة تتأمل غضبه، أجاب نفسه: بتوقع مئات المرات... إذن فأنتِ تقودين سيارتك بسرعة، نظر إليها بخوف: هل تفعلين؟ هزت رأسها... أن نعم...

فرحة هي، نعم... تراقبه بكسل، أسعدها خوفه عليها: خائف أنت علي، تحبني... هذا واضح... أنت تحبني، قلها هيا قلها.

أمسك كتفيها وشد عليها بأصابعه، شعرت بالحرج، فحاولت إبعاده: إياد السيارات، الجيران سيروننا، أرجوك.

- فليفعلوا ما يحلو لهم، لن أتركك حتى تعطيني وعدا بأن لا تتركيني، أبعدها قليلا: أن لا تقودي السيارة بسرعة... أو تقطعي الإشارة حمراء، لا أريد أن أفكر مجرد تفكير أنه من الممكن أن أفقدك، أو حتى أن تبتعدي عني.
- اعتصرها شعور الذنب، كيف فعلت به هذا، كان همها أن تصل إليه أكبر من خوفها على نفسها: أعدك.
- رددیها بصوت عال ثلاث مرات هيا...
- أعدك... أعدك... أعدك. هل أغنيها لك؟ضحكت: أترك كتفي الآن، فأنا بحاجة له، كي تغفو عليه في ليلة ما، وأتبعت جملتها بغمزة تخفف بها من حدة عصبيته.

أطلقها وذهب ناحية سيارته، يداه ترتفعان ناحية وجهه، ومن ثم تعودان... كأنه يتحدث مع نفسه، تناول شيئا صغيرا من خلف المقود وعاد إليها:

- كنت أريد أن أهديها لك بعد أن أدعوك إلى العشاء غدا، ولكن أظن أن هذا هو الوقت المناسب لتذكرك عند رؤيتها بأن لا تفعلي ما يقلقني عليك.

أخرج من علبة بلون الجوري أسورة من الذهب الأبيض، تقطعها خمسة فصوص من الياقوت الأحمر الصغير، مثبتة بسلسلة رقيقة...

- ما أجملها... قالت وهي تتلمسها، نظرت إلى عينيه: ولكنني لا أستطيع قبولها.

أمسك برسغها الأيمن:

- ومن قال أنني أطلب رأيك في قبولها، ألبسها الأسورة... وطبع قبلة على ظاهر يدها، ثم قربها من خده، منحها تمرير أصابعها فوق ذقنه غير الحليق شعورا بارتفاع حرارة مفاجئ، اقتربت منه: أنا آسفه لم أظن أنني سأغضبك.

الويل لهذه المدينة المليئة بالعيون، تطلّ من النوافذ وتخترق الأبواب ، أود لو أضمك إلى صدري، وأشبع حاجتي منك.

أمسكها من يدها:

- تعالي سنمنح للمدينة فرصة ابتلاعنا وإخفائنا في جوفها، أحتاج إلى أن أتحدث إليك، أن أطلعك على التفاصيل الصغيرة في حياتي، أن أتغلغل بك... أتمدد في أعماقك لنتوحد في جسد وقلب واحد لا يخفق إلا إن اجتمعنا سويا.
- لم أكن أعلم أنك رومانسي إلى هذا الحد.
- سأدعك تكتشفينني وكأنني ولدت من العدم لأجلك.

أضفت الإضاءة الخافتة في الشارع الضيق على وجهه سحرا زاده وسامة ورجولة، مشت بضع خطوات أمامه والتفتت إليه تقابله وتمشي إلى الوراء:

- كنت أحتاجك في حياتي منذ كنت طفلة، انتظرتك... ولكنك لم تأت إلا متأخرا، أين كنت مختبئا؟

- انتظرتك حتى تكبري، أنت طفلتي التي لم أنجبها، وأمي التي نشأت بعيدا عن حضنها، أتدركين حجم الحنين إليك، حتى قبل أن أعرفك، كنت أشعر بأنك قريبة رغم أننا لم نلتق قبلا، شاهدتك في أحلامي تمسحين على شعري، وأغرق رأسي في صدرك، أنت حلم كنت أظنه لن يتحقق.

ضحكت وحاولت أن تبتعد، لكنه استعجل في مشيته بمحاذاتها، أمسك بيدها... نظرت إليه بشوق، فقال: نظرة واحدة كهذه كفيلة بأن تنسيني أين أنا، ثم قال مشاكسا: ومع من.

- زجرته على كتفه: ألم أقل لك أنك لئيم.
- نظرت إليه عندما أصبحا قريبين من بوابة منزل كبير، وهمست: انتظر هنا سأريك خدعة.
- جذبها قبل أن تبتعد متوجهة إلى المنزل: ماذا ستفعلين!
- انتظر سترى، تقدمت ببطء من الجرس على طرف البوابة، نظرت حولها... ضغطت على زر الباب وهربت خلف شجرة قريبة، وضعت يدها فوق فمها وأخذت تضحك.

جمّده خروج شاب في مقتبل العمر بعد دقائق من المنزل، نظر ناحيته بعد أن لاحظ خلو الشارع إلا منه، وقال: تفضل.

- تخبط ونظر إلى الجهة المعاكسة مشيرا: ضغط صبي على جرسكم وهرب في هذا الاتجاه.
- هؤلاء الحمقى لو أنني أمسك بأحدهم لأوسعته ضربا، لم يستطع التركيز معه وهي تقفز خلف الشجرة كاتمة ضحكتها بيدها.
- دخل الشاب إلى منزله وهرول هو إلى ناحيتها موبخا: ليش عملتي هيك.
- لو شفت تعابير وجهك وأنت مصدوم رح تفرط ضحك، تخلص من الجمود يا عزيزي، وتصرف بتلقائية، دع الفرح يضفي على يومك صوتا صاخبا... بدلا من أن تلبسه ملابس الصمت والانضباط، ولا تلبث أن تكتشف أنه أصبح يشكل معالم جسدك.
- لم يتمالك نفسه من الضحك: أيتها الشقية، كدت أتورط من خلال هروب ضحكة عندما تخيلته يركض خلفك، ويبرحك ضربا.

- نظر إليها وهي تضحك... وضع يده فوق خدها بحنو وقال: من يعرف مدى جديتك في عملك، ومقدار الحواجز التي تبنينها بينك وبين الرجال لن يصدق أبدا أنك شقية... ورفقتك ممتعة.
- سأدعك تكتشفني وكأني ولدت من العدم لأجلك، قالت وهي تقلد طريقته بالكلام، وقفزت فوق سور صغير أعلى الرصيف، مشت وهي تمد ذراعيها لتوازن خطواتها.
- ألن تنزلي لنتحدث كالكبار؟ شدها من يدها وأنزلها، جلسا على مقعد قريب.
- الفرح في داخلي يشتت العمر حتى يتقلص ويتقلص، ويصل إلى الفترة الزمنية التي سبقت موت والدي، وتحديدا في الخامسة عشرة من عمري، لم أتخيل أنني سأفقده هكذا بسهولة، كان معلمي الذي بذل جهدا يمكنني من مواجهة صعاب العالم، عاملني كأنني رجل يعتمد عليه لمواجهة أي موقف، ولكنه لم يعلمني كيف أواجه شعور الانكسار الذي أحدثه موته، نظرت إليه: لا أريد أن أفقدك ولا حتى أجرؤ على التخيل، سأستغل كل حدث لي معك، وكل لحظة تجمعنا سويا، سأدع نفسي لمرة واحدة تتصرف بأنانية، وأحتفظ بك لي مدى العمر.

- في الماضي لم أكن أتخيل أن أحب امرأة بهذا العمق، وكأنها جزء من روحي، أضحك عندما تفعل، وأشعر بالحزن إن هي شعرت به، أتعلمين... عرفت الكثير من النساء.

- قاطعته: لا يهمني من عرفت، وكم عرفت، أهتم فقط بما أنت عليه الآن، وماذا أعني لك، وكيف ستحافظ علي... والأهم حبك.

- أريد أن أخبرك دعيني أكمل، عشت شبابي كما أريد، لم أترك فتاة إلا وخرجت برفقتها، لا أنكر أنني قضيت معهن أوقاتا مشينة، حتى أنني أملك الكثير من هداياهن لي ورسائلهن في صندوق أحتفظ به في خزانتي، أتصدقين أنني لم أدع عنود تراه أبدا، ولكنني أتوق إلى أن أفتحه معك أستذكر جرائمي النكراء بحقهن ونضحك سويا، وصلت إلى مرحلة الاكتفاء وفاء، لم أستطع الاستمرار في علاقات غير شرعية، تمنيت أن أحظى بعائلة وأبناء، وكانت عنود خياري الأول للاستقرار، فتاة ظننتها تسعى إلى الاستقرار من خلال الارتباط، لم تطل فترة خطبتنا، مع أنها لم تخلُ من التنغيص من قبلها، ومن طلباتها التعجيزية بداعي مستوى العائلة العالي، إلا أنني قررت المضي قدما بزواجي، انتقام الله مني كان شديدا، لم يمنحني طفلا ولا عائلة، وها أنا ذا

أحاول الدفاع مستميتا عن سمعتي التي تحاول تشويهها، ومالي الذي تريد أن تسلبني إياه باسم حقوقها الزوجية.

لم تخف عليه ملامح الصدمة التي ارتسمت على محياها:

- أعترف أني عشت ماضيا لا أفخر به مطلقا، ولا أسعى بأي شكل لأن أكمل باقي حياتي على نفس النهج حينها.

حازم قال لي ذات العبارة، أخذت تفكر... كيف يمكنني أن أصدقه الآن؟ وما الذي يضمن لي أن لا يعود لحياته العابثة تلك؟ لماذا تحدث... لماذا لم يبق ماضيه مغطى، لو بقيت جاهلة بماضيه، لو أنه ترك العلاقة تسير دون هذه العقبة الكبيرة التي زرعها في مقدمتها!

- أجفلت عندما قال متوسلا : لن تفعلي ذلك؟
- أفعل ماذا؟
- تشكين بأنني سأعود إلى تلك الحقبة المشينة من تاريخ لا يشرف.

سعيها لأن تدخل أعماقه لتصدقه بكامل إرادتها دفعها لسؤاله ببراءة :

- ألن تفعل؟
- لن أفكر مجرد تفكير في أذيتك... ألم أخبرك قبلا أن تثقي بي ولو لمرة واحدة، أنت تعنين لي أكثر مما تتخيلين.

دخلت البيت منتشية، فتفاجأت بغادة منكفئة على وجهها قريبا من دورة المياه دون حراك، أصابها الهلع، رمت ما بيدها وركضت ناحيتها، ربتت على خدها: غادة...، غادة... كانت فاقدة للوعي.

سحبتها إلى الأريكة، وبعد محاولات عديدة لإيقاظها فتحت عينيها، أخذت تبكي، هذه الفتاة القوية المتمردة التي لم تسمح يوما لأحد بإضعافها تبكي الآن: ايش فيه، ليه عم تبكي؟

علا صوت بكائها ولم تجبها: احكي ايش فيه، قالت وفاء بحزم.

صرخت بوجهها: ما في شي اتركيني بحالي.

تراجعت مفزوعة وسقطت أرضا، هرولت غادة إلى غرفتها وأغلقت الباب على نفسها.

لم تقو القيام من مكانها، هناك خطب ما، تحدثت إلى نفسها: منذ متى تصرخ في وجهي مع كل تخبطها الأخلاقي، إلا أنها كانت لطيفة طوال معرفتي بها.

تناولت هاتفها من الحقيبة بعد إلحاحه بمكالمة واردة وأجابت: أهلا يمه.

أخافتها نبرة صوتها: ايش فيه مالك، كانت تبكي: يمه ايش فيه... بيت خالك بيحكو أنه بلشت الثورة في سوريا، والناس بينقتلوا بدون تفريق، صمتت قليلا: بلشت الحرب بسوريا يا وفاء.

لم تجد من بين الكلام المنتظر لدوره فوق لسانها منفذا للخروج، سدت جميع المخارج... الليل أيها الكائن المتناقض المتقلب، ألا يمكنك أن تستقر على وضعية ما، ألا تستطيع أن تبدأ بالفرح وتستمر إلى أن يطردك الفجر بتهمة تعاطي جرعة زائدة منه، أم أن مجونك يتمادى فترمي ما يقع بيدك من ضوضاء وتخبط على وجوهنا.

من كان يتوقع أن يثور السوريون على نظام الحكم بعد القمع الذي سمعنا عنه، والاعتقالات من أجهزة الشرطة لكثير من المواطنين، وتلفيق تهم مختلفة لكل متهم ترسله لما وراء الشمس، ولا يسمع عنه أحد، بعدها بسنوات تطول يفرج عنه بعد أن يبلغ من العمر عتيا، وقد يموت خلالها.

بدأت الأحداث بالتصعيد، ومواجهات الشوارع أكثر دموية، تابعت هذه الأحداث بقلب مفطور، في العمل لا سيرة للموظفين إلا سوريا وما ستؤول إليه الثورة، أعداد القتلى تتزايد، والجيش لا يرحم صغير السن، ولا يراعي ضعف كبير السن، كأن الشعب فتيل أشعل من درعا، ولا علم لأحد أي المناطق سيطال ويحرق.

حاولت الاتصال مع بيت خالها في دمشق، لكن الخطوط كانت مقطوعة.

إجازات الصيف التي قضتها في دمشق بينهم عندما تقرر أمها الذهاب لزيارتهم، من أجمل لحظات حياتها، استذكرتها بكثير من الحنين، سهر طوال الليالي التي تسبق الانطلاق، تقلها سيارة الاجرة

على خط اربد – الشام المنطلق صباحا، وبعد أن تقطع حدود الرمثا تشهق طويلا لتمتلئ رئتاها بهواء سوريا الحبيبة، تمنت لو أن والدها يترك الأردن ويستقر قريبا من بيت خالها في دمشق، لشدة ما كان يثير تعجبها ركوب عائلة من خمسة أفراد مكونة من الأب والأم وأطفالهما على دراجة نارية تنقلهم إلى وجهتهم، وهذا ما لم يكن مسموحا به في الأردن، هكذا أجابتها والدتها عند استفسارها عن السبب.

ضجيج السيارات وتزاحمها في شوارع درعا كان يثير في نفسها البهجة،لدى عبور السيارة في وسط المدينة بين المحال التجارية المنتشرة على طرفي الطريق.

أربع ساعات يهبط الملل خلالها على أجفان أمها، يدفع بها هي لتأمل المزارع الخضراء على طرفي الطريق من درعا لدمشق وبمساحات شاسعة ، فطبيعة بلدتها الجبلية عززت لديها شعور الحاجة لتمتع نظرها ببابسة مستوية لا حدود لها الا نهاية مد البصر.

فور وصولها لمخيم اليرموك تصيح بأمها: وصلنا صح؟

تهرول لداخل دار خالها في دمشق القديمة، تصعد السلالم إلى الدور العلوي لتشاهد أسراب الحمام الطائفة فوق المنازل.

ينقضي الشهر وكأنه ليلة فقط، تتجول في سوق الحميدية، تبدأ من ساحة المكسية مرورا بالمسجد الأموي، تختتمها بنصب صلاح الدين وقلعة دمشق، تمر خلاله (لتبورد) بتناول البوظة من "بقداش"، وتزور سوق العصرونية، الحريقة، سوق الحرير، سوق الصوف، سوق الصاغة، تبتاع الكثير من الإكسسوارات لتتباهى بها أمام صديقاتها في المدرسة.

في طريق عودتها لمنزل خالها يرافقها أولاده، لا بد من مرورها على مقهى النوفرة بساحته المرصوفة بأحجار البازلت السوداء، لم يكن يسمح لها بالجلوس على كراسيه مع أن السيّاح يملأونه، حجتهم أن الجميع يعرفون بعضهم في الشام القديمة، وأبناء خالي معروفون للحي، فكيف يسمحون لقريبتهم بالجلوس في مقهى الرجال، الاستفزاز الذي كانوا يشعلونه في داخلها دفعها كل مرة لتتصرف بصبيانية، فما تلبث أن

تدخل الحي القديم، حتى تركض أمامهم وتضغط على جرس كل بيت يصادفها حتى تصل لوحدها، أما أولاد خالها فكانوا يختبئون حتى تغلق الأبواب التي قرعت أجراسها.

ثم ينهالون عليها وعلى من اصطحبها في نزهة بالشتائم، لهجتهم عند انفعالهم تسحرها، وزوجة خالها المدافعة عنها عند تأنيب والدتها لها تمدها بشعور التميّز: تئبر ألبي إيه خليها على دلالها ضيفه بيطلعلا كل شي.

- بس يا ماما سودت وشنا إدام الجيران.
- تئبشني شو مهضومة، يبعتلك الهناء يا وفاء شو بحبك.

ومن ثم تنهي الخلاف بضمها إلى صدرها وتقبيلها.

وهي بدورها ترقص حاجبيها وتمد لسانها لإغاضتهم، فيصمتون قهرا، لا يقطعها إلا تمتمة بيلسان حنقا في طريقها للمطبخ، من كان يصدق أنها ستتزوج في ذلك الصيف بعمر الخامسة عشرة: ستتزوج؟! ولكنها ما زالت طفلة، لن يمضي العام حتى تصبح أما،

كيف يعقل أن تصبح طفلة أم لطفلة؟! استهجنت عند سماعها الخبر من والدتها.

تقدم لها قريب العائلة وفي عرف أهل الشام فقد وصلت العمر المناسب للزواج، هذا يعني أنني أصبحت عانسا في عرف أهل الشام؟!... ليس تحديدا، ولكن أية فتاة بعد العشرين تقل فرصها المناسبة للزواج من شاب يكبرها بأعوام قليلة، ويصبح المتاح إما أرمل أو مطلق.

تصاعدت الأزمة وشملت كل سوريا، لم يعد الوضع أمانا... حدثت نفسها، لم يمض على زواج بيلسان الكثير من الأعوام، لم ترزق خلالها بأطفال، ماذا سيحدث الآن... كيف سيمضون حياتهم بشكل عادي وسط هذا التشريد.

شوشتها الأخبار التي تتقافز بوجهها على صفحات "الفيس بوك"، وما يتناقله الجميع عن تزايد أعداد القتلى كلّ يوم عن الآخر، المكالمات المتتالية من والدتها الفزعة على بلدها وأهلها، تتخللها رسائل ومكالمات إياد... سلام يغلف روحها.

لم تكن في مزاج يتيح لها ملاحظة وضع غادة المزري إلا بعد أن جلست إلى جانبها لمتابعة نشرة الأخبار ذات ليلة، فقد تعودت في الفترة الماضية أن تعود للمنزل في عجالة، وتثبت القناة على الأخبار، الشريط العاجل يقطر دما يملأ مآقيها، يلتف على عنقها، يخنقها بأعداد قتلى يفوق تصورها، صوت غادة المرهق انتشلها لتقابل اصفرار وجهها، وظلال مدت تحت عينيها... أخدود مخيف: أنتِ مريضة!

وكأنها تذكرت أمرا، نظرت إلى ساعتها التي تشير إلى الخامسة مساء: ايش قصتك من فترة ما عم تطلعي من البيت؟

- أنا حامل.
- ايش؟ اعتقدت أنها لم تسمعها جيدا، قالت ببراءة: لكنك لست متزوجة؟ أم أنك كذلك! تحدثي كيف حدث هذا؟

بدأت تتكلم دون أن ترفع رأسها: لم أكن أعلم أن عزيز بهذه الحقارة الويل له، كان لطيفا هادئا، استدرجني حتى وثقتُ به، ورافقته إلى أماكن كثيرة دون حتى أن يلمسني، أحببته، رفعت رأسها بعيون

دامعة: أتصدّقين أنني أحببته مع أنه لم يكن أفضلهم، ولكنه كان مميزا بالنسبه لي، صاحت وضربت بقبضتها على الأرض: ذئب خبيث.

هزتها بعنف: أكملي هيا، أكملي.

- أكمل ماذا؟ اغتصبني، استدرجني... أقسم أنه استدرجني، ظننت عندما غافلني من خلف ظهري أنه يحضّر لي مفاجأة، همس في أذني: اهدأي لن أؤذيك، ضحكت بدلع (يا لسذاجتي)، بعد أن أمسك بيدي من خلف ظهري بقوة شعرت بالخوف، طلبت منه أن يكف عن مزاحه الثقيل، ثم قيدني... حاولت الهروب ولكن إلى أين!

أخذ يضحك بصوتٍ عال، أمسكت بكتف وفاء بهستيريا: صحت بأعلى صوتي... كنا في منطقة خالية بعيدة، لم يكن ليسمعني أحد، ضربني على وجهي ووضع لاصقا على فمي... شعرت بالاختناق، وأخذ يصيح بقسوة: تريدين أن تعيشي بحرية وعلاقة دون زواج، سأوفرها لك الآن، لماذا لم توافقي على الزواج مني، تريدين أن ترضي غرورك بإذلالي أليس كذلك! تظنين أنني مثل غيري تستطيعين

استغلال عواطفي والتخلي عني عندما تملين مني! سأريك الآن كيف ستكون الحرية!

حاولت المقاومة... وددت لو أصارحه بحبي له، لكن اللاصق أخرسني .

زاد نحيبها، وأخذت تضرب بكفيها على رأسها، وتشد شعرها، أمسكت وفاء بيديها بعنف.

نظرت إليها كمن أصابه المسّ، مر شريط رفقتي بالرجال من أمام عينيّ كابوسا... أتمثله يجثم فوق صدري، رأيت وجهه يقترب مني، ضاحكا شامتا مقهقها، وأخذت يده تعبث بي، وفي ثوان وجدت نفسي عارية... عارية رددت ساهمة ثم صمتت.

جذبت روب نومها حول جسدها بقوة، زادت مقاومتي له، أخذت أنتفض كالدجاجة قبل ذبحها، شعرت بهجومه الوحشي على جسدي الذي استكان، فبت هادئة، مشلولة ثم... ثم غبتُ عن الوعي.

عادت للبكاء والنحيب:

أفقت في سيارته، رأيته يبكي ويضرب المقود بعنف، خفت أن يشعر باستيقاظي فيكرر فعلته، ولكنه نظر ناحيتي فجأة، ارتعبت والتصقت بالباب، رجوته أن يتركني وشأني، وأنني لن أخبر أحدا عما فعله بي، لكنه ركن السيارة وأمسك يدي وأخذ يرجوني أن أسامحه، وأنه لم يكن يقصد إيذائي، كرر أنه يحبني ولن يتخلى عني، و كل الذي أراده هو أن يجد طريقة يضمن من خلالها أن أكون زوجة له.

كيف اعتقد أن أسلوبه الخسيس الحقير، سيمكنه من الزواج مني، لقد أكل السوس عقله حتى بات لا يفكر.

لم تجد وفاء الشجاعة لتقف، نظرت إلى غادة بغضب يا إلهي... هل هذه هي لا غيرها غادة من تحدثت بعنجهية عن ضرورة تغيير الرجال كما الثياب، كل موقف يستوجب رجلا بشكل مختلف، وصفات لا تشبه الآخر، وعقلية محددة حسب المناسبة، فالعمل يحتاج لرجل عملي طموح قادر على منحها ترقية وراتبا إضافيا، أما الغداء فلرجل يصطحبها إلى مطعم فاخر، ثم محل للملابس باهظة الثمن لا

يبيع إلا ماركات غالية الثمن، المساء للسهرات والرقص مع رجل مرح يتقن فن الرقص، هذا كل ما تحتاج إليه، غادة تلك رحلت وتركت خلفها هذه المرأة الهشة المنكسرة الخائفة.

تحاملت على قدميها ووقفت، ثم قالت تقلد غادة بسخرية: انطلقي... حيث لا حدود للحرية إلا في عقلك، هل رأيت الآن طريق الانحلال إلى أين قادك... أين وصلت؟

سأقول لك أنا إلى أين، إلى طريق الرخص والهلاك، أصبحت سلعة بأيديهم، الويل لك.

صمتت... ثم أردفت كأنها تذكرت شيئا: أهلك... سيقتلونك، إخوانك ووالدك لن يقبل أن تلطخي سمعة وشرف العائلة بالطين، وقد يرأفون بك فيسجنونك مدى الحياة.

- لا لن يفعلوا إن أخبرتهم بأنه اغتصبني، سيقتلونه هو، أتعتقدين أنني كنت سأوافقه على فعلته؟

▪ ذهبت معه بملء إرادتك، ولم تكن لمرة واحدة، بل مرات عديدة مكنته من استغلالك حتى نفذ مخططه دون صعوبة في استدراجك.

▪ ألم تفهمي بعد، هل أقول ما يصعب عليك فهمه! لقد اغـ تـ صـ بـ نـ ـي اللعنة عليه، لن يقتلوني، أنا متاكدة من حبهم لي...

كان وجه وفاء جامدا مصفرا لا حياة فيه... أردفت:

▪ بلى سيفعلون، هذه الفضيحة لن تترك للحكمة والتروي خيارا، وكونك ابنتهم الغالية لن يمنعهم من التفكير بطريقة تمكنهم من تطهير شرفهم منك.

ركضت ناحية وفاء ، أخذت تهزها وترجوها: هل سأموت؟ سيقتلونني... نعم سيفعلون... لا أريد أن أموت، أرجوك ساعديني.

▪ الآن أساعدك... ألم أنصحك قبلا! أنت الملامة الوحيدة على ما حدث، ولو سألت أي شخص كان يراقب تصرفاتك ومجونك سيخبرك أن اغتصابه لك كان لأنك رغبت بأن يفعل بك ذلك.

أبعدت يدي غادة عنها بقرف وهمست:

- لو لم ترافقيه لما حدث ما حدث.
- وكأنك تلومينني، قالت مستهجنة.
- صرخت بوجهها: كيف لا ألومك؟ بلى أنت الملامة... المرأة هي من تقرر كيف يتصرف معها الرجال، وإلى أي درجة تسمح لهم بالاقتراب منها... أنت جعلت من حياتك حقلا مشاعا لكل رجل مر منه، ما يعجبه منك ينتقيه ويحمله!

شعرت غادة بدوخة، فجلست على الأرض، قالت بخوف وهي تمسك ببنطال وفاء تشده إلى أسفل: أرشديني أرجوك، ساعديني، لا أريد أن أموت، سأتخلص من الطفل... وكأنها وجدت الحل: سأقوم بقتله ولن يعلم أهلي بما حصل.

- تعلمين أن في معظم عمليات الإجهاض تموت الأم مع الجنين، وخاصة أنها تتم في عيادات غير مرخصة.

حاولت وفاء أن تكون مقنعة، نظرت إليها بشفقة حتى لو أخطأت، لا يمكنها أن تتخلى عنها في هذه المصيبة، وأية مصيبة!

جلست إلى جانبها، شعرت أن اقتراحها سيثير اشمئزازها وقرفها، ولكنه الحل الوحيد لتبقى على قيد الحياة: يجب أن تتزوجي منه.

- انتفضت غادة ولوت شفتيها، هزت رأسها بعنف: لا لا لن يحدث هذا، كيف يمكنك أن تكوني بهذه القسوة وتقدمي لي مثل هذه النصيحة القاتلة، أفضل الموت على الزواج منه، كشرت بقرف: أنا أكرهه... أتفهمين، لا أطيقه، أتمنى لو أستطيع قتله الآن كما قتلني.
- نصحتها وفاء مواسية: للأسف هذا هو الحل الوحيد.

دخلت غرفتها بعد أن غفت غادة متمتمة: لا يمكن أن أتزوج منه، سيقتلني كل يوم، لن أستطيع الاعتراض، سأموت، لا أريد أن أموت، هو من يجب أن يقتل ولست أنا.

خمس مكالمات لم يرد عليها من والدتها وإياد، والعديد من الرسائل غير المقروءة منه، طلبت والدتها، طمأنتها: غادة في مأزق ولم أستطع أن أتركها لوحدها أمي.

- ما بالها؟ قالت والدتها بقلق.
- كيف تخبر والدتها بالقصة! لا يوجد أم تقبل على ابنتها أن تقيم مع فتاة دون أخلاق في بيت واحد: لا شيء يدعو للقلق، مجرد إرهاق عمل فقط.
- ساعديها لترتاح قليلا يا ابنتي، سأحادثك غدا.
- صوت أمها مسكون بالخوف والتوتر وبرغبة واضحة لتبادل الحديث، إلا أنها لم تستطع مجاراتها: سنفعل بالتأكيد، تصبحين على خير.
- وأنت من أهله، حماك الله من كُلّ مكروه.

سلسلة رسائله بدت بالقلق ثم الارتياب، وفي آخر رسائله خائفا، هل هذا ما فعله عزيز بغادة، أوهمها باهتمامه حتى استدرجها؟ أبعدت الظنون التي بدأت تغزو تفكيرها: لا، لا يمكنني أن أشبه إياد بعزيز، إياد شخص نبيل، يرده حسن تربيته ومبادئه عن مثل هذا الفعل المخزي، قالت تحدث نفسها.

- ألو... إياد...
- وينك بربك.
- غادة زميلتي في السكن واقعة في مشكلة كبيرة جدا، وما بعرف كيف ممكن أساعدها!
- كل مشكلة ولها حل مهما كانت صعبة، قال بعد أن أخذ نفسا عميقا، إذا المشكلة مادية، فممكن أساعدها!
- ما رح تقدر... ولا حتى أنا، ما حد ولا حتى هي، حملها رح ينكشف عاجلا أم آجلا.
- منذ متى والحمل مشكلة، أليس هذا ما تسعى إليه أية أم على هذه الأرض!
- ولكنها غير متزوجة، نطقتها بشكل متقطع، خائفة من ردة فعله.

صمته الطويل أخافها، هل سيظن أنني سيئة الخلق الآن، فيتركني! تعجلت:

▪ اغتصبها... من المؤكد أن هذا سيشكل فارقا إن قرر أن ينسحب بسبب غلطة غادة!

▪ وكيف حدث هذا؟ سألها.

▪ لقد صدقته، وكانت تخرج معه دون خوف، طلب منها أن توافق على الزواج منه لكنها رفضت، فقام باستغلال خروجهما في إحدى المرات واغتصبها.

▪ الويل لهما، كان بإمكانها أن تتوقف عن رؤيته بعد أن رفضته زوجا، وكان بإمكانه أن يحاول إقناعها بحبه والزواج منه.

▪ ولكنها لم تستطع تركه والابتعاد عنه، فقد كانت تحبه.

▪ لا أفهم، تحبه... ولا تريد الزواج منه! قالها بسخرية.

▪ قصتها طويلة سأحدثك بها لاحقا، نصحتها أن تتزوج منه لأنها إن لم تفعل سيقتلها إخوانها ووالدها.

▪ حدثيني الآن بقصتها، لا أريد أي تأجيل يخص هذا الموضوع، أريد أن أعرف مع من تعيشين، اعتقدتك آمنة في ذاك المنزل، الغريب أنك تسعين لمساعدتها، انطلقت كلماته غاضبة فلم تستطع مقاطعته، شعرت أنها المتهمة: هيا حدثيني الآن عن هذه الـ... ماذا تدعى؟

- غادة، قالتها بخوف.
- إذا...

كانت تتجرع ريقها خلال حديثها، يحرجها ذكر انحلال غادة، وكم من الرجال الذين خرجت برفقتهم، كانت تسرع كأنها تهرول عند حديثها عن مبدئها في تعاملها مع الرجال كالملابس، خشيت أن يجرحه تشبيه غادة لهم بأنهم كالثياب، فاختصرت عباراتها بهذا الخصوص، تطرقت لسهراتها ومجونها، سمعتها السيئة في الحي والعمارة، ثم صمتت.

- أكملي أهذا كل شيء، ألم تنسي أن تخبريني أنها تنتظر كل ليلة على ناصية الشارع لتقلها سيارة أحدهم!
- ما بالك... ولماذا تتحدث عنها بهذه الطريقة، لا أنكر أنها تعيش بحرية غير مسؤولة، لكنها ليست منحلة إلى درجة بيع جسدها لغريب!
- وهل تبيع جسدها لرجل تعرفه! ألا تكبرين ولو قليلا، ألا تتحررين من براءتك، أنت تعيشين في حياة بائدة، مجتمع المدينة الفاضلة لم يعد موجودا، لم يكن موجودا أصلا.

كل الذي حدثتني عنه الآن... وأعلم أنك اختصرت الكثير من المشاهد المخزية، والأفكار المنحطة التي تنشرها هذه الـ غادة، وتحاول إقناعك بها، وما زلت تدافعين عنها، أي طفلة أنت؟ لو لم أعرفك منذ مدة... وسمعت أنك تعيشين في منزل مع بائعة هوى كانت أخذتني بأخلاقك الظنون.

لحظات صمت أثقلت لسانها، شعرت بحرج غريب، لم يتحدث أحد إليها من قبل بهذه الحدية... وبهذه الطريقة المؤنبة، حتى هو هذا الإنسان الساخط حاليا، اللطيف الهادئ في أغلب الأوقات، فاض بالغضب وسد عليها منافذ الكلام، كيف تكون بهذه السذاجة، وبهذا الغباء في تقديرها للأمور! وهل حقيقة أن غادة بهذا القدر من السوء، أم أنه يحاول إخافتها لتبتعد عن التدخل وتقديم يد المساعدة لها؟!

أغضبها الحرج الذي سببه هجومه على أسلوبها في التعاطي مع قضية غادة: توقف عن تأنيبي، منذ متى أصبحت المساعدة تفسر ضعفا أو سوء تقدير، وحتى لو كانت غادة سيئة الخلق... إلا أنها إنسانة قبل

أن تكون صديقة، طلبت مني الوقوف إلى جانبها في محنتها، أأتركها! لا... لن أفعل.

باستعجال أنهى المكالمة:

- افعلي ما يحلو لك.

سيعاود الاتصال، لن يستطيع الابتعاد... هي بضع دقائق فقط، حدثت نفسها ووضعت الهاتف على الصامت، أغمضت عينيها لتنام، ثم عادت وأمسكت بالهاتف وضبطته على وضعية الرنين: لن أجيبه إن اتصل، أغلق التعب أجفانها ونامت على أمل أن يوقظها صوت شوقه صباحا.

أيام ثقيلة مرت دون تواصله، لا مكالمات، لا إشارة خضراء تدل على أنه على الطرف الآخر من "الفيس بوك"، كلما فتح باب مكتبها، أو مرت سيارة تسير ببطء على مقربة منها اعتقدت أنه لم يقو على البعد أكثر، شاهدت انعكاس وجهها في شاشة الهاتف أكثر مما شاهدته في المرآة.

لم تستطع أن تتحمل بعده عنها أكثر...

- اشتقت لك... أأرسلها كما هي، أم أتبعها بأنه قاس وعنيد، لن يجيب... لا سيفعل، اختارت زر الإرسال، وضعت يدها على عينيها، أرسلتها.

مرت دقائق ثم ساعات ولم تتلق ردا: لن يخذلني... أفهم أنه غاضب، ولكنني لم أرتكب إثما عظيما لأعاقب منه بهذه القسوة.

في داخلها أمنيات عديدة تصدّرها انحسار الثورة في سوريا وانتهاؤها بأقل خسائر ممكنة، أمنياتها تلاشت وتبخرت فور تدفق الأخبار إلى أسماعها، وسدّ منافذ النور عن عينيها من كل جانب، سواء

في المكتب أو في الشارع، وعبر المنشورات على صفحات التواصل الاجتماعي، ملاحقتها للأخبار أرهقتها، وسفر إياد إلى هناك ضعضع قوتها، لم يكن ينقصها إلا أن تعلم من سكرتيرته في المكتب عن سفره المفاجئ صباح اليوم التالي لاتصاله بها، كي يحاول الوقوف على حال مصنعه، والبحث عن طريقة يضمن بها استمرارية الإنتاج: متى سيرجع؟

- لم يحدد فترة غيابه آنسة.

ومنذ متى كان الغياب رحيما ليعيده إلي بأقرب وقت ممكن؟!

لم تلتق بغادة منذ ذلك اليوم، وكأنه أعلن بغضبه قطيعة بينهما ألزمتها غرفتها، وفي سعيها ليكون راضيا رغم أنه لا يراها ولا يعلم ماذا تفعل، تحاشتها والتزمت غرفتها، وكلما همت بالنهوض لتسعفها في بعض الليالي الصعبة التي صم أنينها آذان الهدوء، وملأ صوت استفراغها أرجاء المنزل، تذكرت غضبه، فبقيت في غرفتها تروح وتجيء، تضع أذنها على الباب تسترق السمع، تخشى أن يصيب غادة

مكروه، وعندما يخيم الصمت تخرج على رؤوس أصابعها لتراقبها نائمة كالطفل الصغير.

أحداث اليوم السريعة دفعتها للعودة إلى المنزل، شعرت برغبة في الاستحمام... حاولت أن تدخل الحمام فوجدته موصدا، طرقت على الباب: غادة هل أنت في الداخل؟!

لم تتلق إجابة، ولكنها سمعت حركة ضعيفة في الداخل: أنت بخير؟! جاوبيني ما تخليني أقلق لو سمحتي.

لا ينقصها إلا غادة الآن لتكتمل بشاعة الأيام الماضية، فتح الباب واستندت غادة على حافته بنصف ابتسامة صفراوية: تخلصت منه، تناولت حبوبا جلبتها من الصيدلية، ضربت كفيها معا ثم رمت بيدها اليسرى فوق رأسها: راح البيبي وخلصت من عزيز، قال ما في حل إلا تتجوزيه، لو بموت حالي ما بتجوزه، أنا أصلا بكرهه... تعرفي ايش يعني بكرهه، يعني نفسي أقتله مثل ما قتلت البيبي، فكر أنه في يوم أخضعله أو أستسلم، أنا غادة أستسلم لعزيز!

تقدمت بهدوء قابضة على أسفل بطنها حتى وصلت للكرسي أمام التلفاز، تمددت: كلها أيام قليلة وبستعيد عافيتي، ما رح أكون غادة إذا ما رديته إياها.

الإحباط والكسل، القلق والغضب مزيج أهلك أعصابها، فردت دون اكتراث: الحمد لله أنك استطعت التخلص منه دون مضاعفات، مع أن قتل الطفل يعادل قتل إنسان راشد، وفي حالتك لا أستطيع حتى سؤال نفسي هل يعد قتل الجنين حرام أم حلال؟! لكني بت على يقين أني أعيش مع مجنونة لن ينعدل حالها أبدا.

نسيت أنها لم تتناول طعامها منذ الصباح، رمت بجسدها على السرير بملابسها وغفت تحتضن الهاتف بيديها.

كل الأيام دونه تشبه بعضها، تحاول الاندماج في هذا العالم الواسع، محاطة بكل هذه الوجوه بأفواهها المتحركة بنفس الرتم لأسفل ولأعلى، دون أن يصل أسماعها أي حديث مفهوم، وحيدة! نعم رغم هذا الازدحام على باب اهتماماتها من أعمال وشخوص، إلا أنها تشعر بفراغ العالم إلا منها.

مساء مقفر بائس حزين، قلق، سوداوي، ممسوس، تخاطب فيه الجدران، تستغيث بالباب أن يحمل لها وجهه، أو رنين هاتف يهزها بصوته، لم يؤنسها صوت التلفاز، وحتى باقي الأصوات التي تصلها من شقق الجيران، تخيلت أنها تقدمت بالعمر، تجلس وحيدة لا يعيلها أحد، وقد تموت ولا تدلهم عليها إلا رائحة جسدها المتحلل.

أمسكت الهاتف وطلبته، هاتفه خارج التغطية... لو أنه أحبني لحاول أن يتواصل معي بأية طريقة كانت، لماذا يسخرون كل ثانية لهم معنا في تلبية رغباتهم ولا يتجاوبون مع مشاعرنا تجاههم، وعندما نرغب بهم... كثيرا ما يركبون أسرع وسيلة نقل ويرحلون؟

كانت في غرفتها عندما رنّ الهاتف... تعثرت في هرولتها، تناولته ودون أن تنظر إلى الرقم: إياد...

نبرة حزينة ليست بغريبة على سمعها، وكأن الماضي يتسلل إلى حاضرها ليقول ساخرا: إياد من؟هل نسيتني... نسيت حازم!

سبب سقوطها في الهاوية، عاد يحلق من جديد على مقربة منها، يوهمها بأنه يبتعد ليباغتها بالهجوم.

- ماذا تريد حازم؟ كانت نبرتها هادئة على غير ما توقعت، وكأن مرضه يربت على كتفها لترفق به.
- لا أريد إلا أن تسامحيني فقط، لم يعد مرضي خافيا على أحد، وأعلم أنك تحملين في قلبك تجاهي الغضب والبغض، أستحق ذلك ولا ألومك، لكني أطلب منك السماح، لم أطلبه من غيرك... وكلي يقين بأنني لم أؤذ إلا أنت... أحببتك وهي الحقيقة الوحيدة في حياتي، وسأغادرها الآن وما زلت أنظف من عرفت... وأنقى من التقيت.

ضعفه غطى جروحها، نبرة الانكسار في صوته سحقت رغبتها في الانتقام... كل نواياها في رد الصاع صاعين عندما يتصل أو تلتقيه تحول إلى رغبة قوية في الوقوف إلى جانبه في مرضه، وتشجيعه على أن يكون قويا، وأن لا يستسلم، هذا الحازم بدا متهالكا بائسا... لا حول له ولا قوة على التجبر والبطش وسوء المعاملة، جلّ ما يريده منها هو الغفران، تمنت لو رددت على سمعه كلمات قالها ذات فرقة "الله اللي يسامح... أنا ما عندي سماح": لم ترتكب في حقي ما أسامحك على فعله، ما حدث قسمة ونصيب، افتعلت ضحكة: ما بالك فقدت روح البهجة... اضحك لا تفقد الأمل ستشفى.

▪ طيبتك تقتلني أكثر من مرضي، كيف هيئ لي أن تصاريف الزمان ستسلبك ملائكيتك! وددت لو أني لم أتصل، حاولت أن أقنع نفسي أنك لم تكوني يوما في حياتي، أرجوك سامحيني، قطع الاتصال صوت بكائه.

ودت لو قالت له أنها سعت لتتغير، وتلغي المشاعر من حياتها، أن تخبره بأنه كان السبب في انسلاخها عن ذاتها لسنوات، وأن ما حاول والدها تعليمها إياه حول وقوفها بقوة في وجه أي طارئ يقع لم ينجح في إمداد أقدامها بالعزيمة لتواجه غدره وخيانته، ودت لو تخبره أنها عادت لتؤمن بالحب، وأن إياد خلصها من شعور الهزيمة الذي رافقها بعد الذي فعله حازم... وأنها الآن عاشقة... كانت تود لو تخبره كل هذا ولكن، أين هو إياد الآن؟

عجوز بطيء الخطى، تمسكه من يده المرتعشة، تشده الأيام إلى الوراء، وتدفعه من الخلف... ويبقى صامدا كأنه يريد بخطواته الثقيلة إقناعها بحشو ذاكرتها ترابا.

- ألا تنامين يا صغيرتي؟ تساءلت فداء مشيرة إلى شحوب وجهها.
- لا أستطيع، فمذ غادر إياد وأنا لا أرى إلا الكوابيس، أتصدقين أنني استيقظت مفزوعة أكثر من مرة، لم أعد أنام إلا والغرفة منارة، أتفقد الباب كل دقيقة لأتأكد إن كنت أحكمت إقفاله أم لا، وكلما سمعت هرة تموء في الخارج ظننت أن إيادا يرسل لي إشارة ما لأطل عليه من النافذة.
- لا أرى داعيا لكل هذا الخوف، أظنّ أن أمر سفره لن يطول أكثر، نظرت حولها في الشقة: وينها غادة؟!
- ما بعرف عنها شي، عم تطلع وتدخل على البيت بدون ما تحكي كالعادة.

كانت عينا فداء مثبتة على شخص خلفها، عندما التفتت خالت أنها أصبحت بين ذراعيه، تمنت لو أنها تغفو فوق صدره، رفعت رأسها نحو وجهه، لا شيء يكسر المرأة أكثر من شعورها بالقرب من رجل تحبه، وتشعر به بعيدا عنها... رغم وقوفه أمامها تحاول التقرب إليه، لتصل معه لبر الأمان، ويقوم هو بإغراقها حتى تختنق.

والآن لم تعد تفكر إلا في رائحته التي تستفز يقظتها بعنف، مما دفعها للتراجع إلى الخلف: إياد، كيف دخلت؟

- كان الباب مفتوحا، هل غادرت غادة الشقة؟ جاء سؤاله حادا، قربه منها إلى هذا الحد، والشوق الذي يفور غليانا في صدرها كأنه يدخل في ثنايا ناي زرعه كنبتة صغيرة فيها ليزهر ألحانا... شتتها.
- هلووو، هل أنت بخير؟
- لا...أقصد نعم، نعم بخير، أين كنت؟
- سافرت إلى سوريا في الصباح التالي لمحادثتنا.
- أعلم هذا، فقد تحدثت إلى سكرتيرتك، ولكن لماذا لم تخبرني أنت بنفسك، قلقت عليك؟
- لاحت على فمه ابتسامة، ومرت فرحته على مضض، تمالك نفسه: حاولت أن أخبرك تلك الليلة ولكن... سكت بعد أن لاحظ وجود فداء: أعتذر منك، كيف حالك؟
- لا تسألني... فأنا بألف خير، أنت أمامها الآن، وأعتقد أنه يجب أن تتحدثا لتطمئن وتستكين.

قلة النوم أضعفت قدرتها على مقاومته، بعد دخول فداء للمطبخ رمت بنفسها بين ذراعيه: اشتقتك، لا تتركني معلقة هكذا مرة أخرى، رفعت رأسها نحوه وهمست: كيف حدث وأصبحت مرتكز فرحتي ومصدر سعادتي وشعوري بالأمان.

شعرت به يشم شعرها، يطوقها بين ذراعيه، ثم أبعدها بلطف: آآه لو كان بإمكاني تجميد هذه اللحظة، لأبقيتك طوال العمر حبيسة ذراعي.

أمسك خصلة من شعرها، أخذ نفسا عميقا: نبتة ياسمين أنت، وهذه الخصلة زهرة لا تقدر بثمن.

تراجع للخلف بعد أن سمع سعلة هادئة، قدمت لهم فداء القهوة وقالت لقطع الصمت الثقيل الذي خيم عليهما: كيف هي الأوضاع في سوريا، سمعت أنهم مقبلون على حرب أهلية.

- في الحقيقة الوضع مخيف، لا بل مفزع، وما تسمعونه من نشرات إخبارية لا ينقل ولو جزءا بسيطا عما شاهدته من دمار وقتل جماعي، لم يسبق أن تحدى الشعب حكم بشار، وخاصة بعد أن قابل

جيش الأسد والموالون له المحتجين بإطلاق الرصاص الحي، وهذا ما أثار غضب الشارع السوري، وحوّل الاحتجاجات للمطالبة بإسقاط الرئيس، واجهنا صعوبات في التنقل، وكثير من الأحياء تحولت إلى مقابر، وأخرى الى بيوت للأشباح، لقد امتدت الثورة إلى كافة أرجاء البلاد، وقد شاهدت نزوحا للأهالي نحو المدن الآمنة إلى حد ما.

- هل كنت تنوي الانتحار بسفرك هذا؟ نظراتها إليها، دفعها لتكمل بعصبية: لن أبرر حديثي المنفعل، لقد عانيت كثيرا بسبب طول فترة سفرك، وأنت حتى لم تكلف نفسك طمأنتي عبر أية وسيلة كانت.
- كان يجب أن أذهب للإشراف على سير عمل مصانعي هناك، وأفكر جديا في نقلها إلى هنا قبل فوات الأوان، لم أتمكن من التواصل حتى مع عملي، لو أتيت معي لشاهدت بأم عينك الموت يطوف حولك.

ألن تغيري مكان سكنك، هل ستبقين في هذه الشقة المشبوهة؟ بدا واضحا أنه يسعى لتغيير الموضوع...

- سأحاول البحث عن سكن آخر قريبا، حاولت أن تلفت انتباهه إلى عدم التطرق للموضوع أمام فداء.

نظر إليها مطولا كأنه يسألها: إلى أين؟

- إلى قلبك، ملجأي وملاذي، إلى عينيك وطني، بين يديك حيث لا أشتهي إلا قبضتيك تحرساننني.
- تعالي، لأغلق علينا الباب وأرمي المفتاح للمجهول، اقتربي حيث لا حياة تكتمل إلا بك.

قاطعت فداء حديثهما الصامت: أعرف فتاة تبحث عن شريكة للسكن، وقريبة من مقر الشركة، إن رغبت سأتحدث إليها غدا لتعايني الشقة.

- نعم ترغب بذلك، أجابها إياد: ولكن أود لو انك تحدثيني عن أخلاق هذه الفتاة.
- سارة فتاة هادئة، كل ما أعرفه عنها أنها تحب المنزل، ولا تخرج منه إلا للعمل.

- ممتاز، أخبريها أننا سنمر غدا لرؤيتها.

أن يعينك إنسان على حمل أرهقك دون أي طلب للمساعدة منك، لهو حدث وجب الاحتفال به، دمعت عيناها وهي تغلق الباب خلفهما.

تقوقعت كطفل صغير فوق المقعد الذي ضمه، لأول مرة منذ أسابيع تغفو دون أن يشد الخوف أجفانها للأعلى، انسلخت عن محيطها لتتكور في هذه البقعة الصغيرة التي لامسته لقليل من الوقت، وحضنتها لتغفو.

ترافقا إلى حيث سارة، بعد أن أصبحا في الداخل توقف أمامها وبدأ يستجوبها، فتاة هادئة، يخيل إليك أنك تسحب الكلام من بين شفتيها سحبا، لا تحب السهر، تعشق المنزل، وغير اجتماعية أبدا، كان هذا كل ما عاينه، اتفق معها على وقت الانتقال، وألقى نظرة خاطفة على الغرفة التي ستشغلها وفاء، مرتبة نظيفة بسرير مفرد وطاولة، ثلاجة صغيرة وكرسي، ونافذة تطل على الشارع.

منقادة بإرادتها، منصاعة له لا تعترض على قراراته، لم تحاول أن تقاطع حديثه، لم تناقش فترة الانتقال وإن كانت مستعدة أم لا؟

شعور الحماية اكتمل، فسلمته دفة الحياة، رجلها الذي يسعى للحفاظ عليها حتى من نفسها يحيطها بالأمان، هل هذا هو الاحتواء!

أن تشعري بكاملك داخله، وأفكارك جزء منه... عواطفك لا تنفصل عن عواطفه، جزء أنت من كله، عالمين في لحظة اندماج روحاني كامل ينتج عنه انفجار قوي من الطمأنينة، يحتويك بدلا من أن يشتتك.

عام مر منذ انتقلت إلى شقتها الجديدة، تزامنت أغلب بدايات حكاياتها سقوط المطر، تأملت انسيابه فوق الشارع من شباكها، تذكرت كيف أن غادة لم تنطق بكلمة واحدة عند تسليمها نسختها من مفاتيح الشقة، وكأن الأمر لا يعنيها.

- ألو ، أهلا يمه.
- من شهر وبيت خالك ما عم أقدر أتصل فيهم، قلبي مقبوض وخايفة عليهم.
- حاولت اتصل معهم وما لقط الخط، ومش عارفه ايش أعمل.
- ربنا يلطف فيهم.

الإنسان دون وطن لا قيمة له، العلاقة بينهما تبادلية، تشاركية، فالوطن لا قيمة له دون شعبه، مشاهد اللاجئين الواصلين عبر الحدود مشيا على الأقدام لمسافات تدوم أياما تدمي القلب، يقتل من يقتل منهم بفعل الغارات بالبراميل المتفجرة، ومنهم من يقتل برصاص الجيش، عائلات أبيدت بأكملها، أمهات وبنات اغتصبن وقتلن أمام أطفالهن وآبائهن.

آباء سلّموا الروح دفاعا عن شرفهم وعرضهم، لم يخطر لبشار نفسه أن يتأزّم الوضع السياسي لدرجة أن تتحول سوريا إلى مسلخ آدمي لا يرحم.

العام المنصرم زادها قربا من إياد، رافقته أولا بأول في مراحل قضيته مع زوجته، مواجهتها لظروفه الصعبة معا زادتها قربا، كان إن بكى احتضنته، وإن حزن افتعلت مناسبة تدعوه من خلالها لتخفف عنه، الظهر الذي تسند عليه ضعفها، والشفاء إن خارت أعصابها.

لم تشعر للحظة واحدة أن تردي ظروفه المادية سيقف حائلا أمام ارتباطها، وتؤكد له كلما حاول أن يطلعها على خساراته المتلاحقة كسبب لتركها تبدأ حياة جديدة بعيدا عنه: لا يمكن للروح أن تتخلى عن الجسد لمجرد عارض صحي يمكن استئصاله، سنؤقلم حياتنا على ما هو متوفر، والأرزاق بيد الله، أنت معي وهذا يكفيني.

- الحياة لا تستقيم فقط بالحب، إن دخل الفقر من الباب هرب الحب من الشباك.
- أغلق الشباك إذن ولا تعيد فتح هذا الموضوع.

ما كان ليمر على هكذا قضية مرورا عابرا، ففي مناسبة اجتماعية جمعتهما حاول تحاشيها وكأنها غير موجودة، اتخذ مكانا قصيا حتى لا تصل إليه: أسلوب جديد للتعامل، واجهته غاضبة.

- دعينا نؤجل الحديث لما بعد.
- لن نؤجل شيئا، صارحني هيا... لما تختلق هذه المسافات غير المبررة بيني وبينك، لما توهم نفسك أن العلاقة بيننا لا تستوي وتستقيم إلا بتوفر الثروة، افهمني إياد... المشاريع الكبيرة الناجحة لا تنجح ولا تكبر وتزدهر إلا بتوفر رأس مال قوي يثبت الأرض تحت أقدامنا، أنت رأس المال عندي، ابق صامدا كي لا أنهار.
- إن سقطت سأسقط وحدي، انتبهي إلى الوضع المتردي الذي وصلت إليه، لم يتبق لي سوى شركتي التي تنازعني عنود عليها وقد أخسرها، أتفهمين!!
- افهم فقط أني لن أكتفي بك ميلادا وأنتحر طواعية بعدها، التعايش والتعامل مع الظروف والمستجدات وتعدّيها يقودنا لخلق حياة

تليق بنا نحن سويا، وعلينا التفكير معا في حل واحد، لن أدع أي سبب يدفعك لتنسلخ عني.

شهر ونصف الشهر ولا أخبار من سوريا، وكأن سدا ارتفاعه السماء شيد لحجب الأرواح أن تلتقي.

حاول إياد مساعدتها بالاتصال مع معارفه، لكن لا فائدة، الاتصالات مقطوعة، ولم يعد أحد يفكر بالسفر إلى هناك، اللاجئون يصلون بالمئات، البيوت امتلأت، المخازن التجارية المهجورة أصبحت منزلا للاجئ وعائلته، لا بل لعائلات عدة، الغرف في المنزل الواحد أصبحت منازل، والزعتري في وسط الصحراء أضحى محافظة جديدة يفوق سكانها (٣٠٠٠٠٠ ألف لاجئ).

القصص التي يرويها اللاجئون تدمي القلب، التقت بمهاجرة مسنة عند والدتها قبل أشهر مع ابنتها الخجولة في الحادية عشرة من عمرها: أين بقية عائلتك خالتي؟ سألتها بفضول.

- ما بقي حدا فيهن يا خالتي، فقدتهم واحد ورا التاني قدام عيوني هذول، لملمت لحمهم بأيدي، ودفنته باب البيت، صفنت في

كفيها الممدودتين أمامها ودمعت عينا ابنتها: القصف صاب العريس بظهره، كان يغسلي السجادة، حملها وبده يفوت البيت وبلش القصف، شفته بيركض لجهتي وأنا أصرخ بسرعة يا أمي بسرعة... وقف فجأة والدم انفجر من ظهره، الشظية قتلته وترملت العروس، إخوانه ركضوا ليسعفوه، انفجر برميل بالساحة، كابوس حي أخذ روحي وفتتها، صرخت... ولولت... ركضت مثل المجنونة أدور عليهم بقايا يااا خالتي ما لقيت إلا بقاياهم.

علا في وقتها بكاء الفتاة... والصمت فرض حصارا على فم العجوز، وألجمني... بكيت كما لم أبكي من قبل، شعرت بنار القهر تشتعل في صدري، ولم أملك لإخمادها سبيلا.

هل من المعقول أن الحادث تكرر مع عائلة خالها، تساؤل تردد كلما قامت بزيارة إحدى العائلات السورية لإيصال المعونات والتبرعات الإنسانية لبيوت خالية من الأثاث، لا ملابس مناسبة للطقس تقي أطفالهم برد الشتاء، بكت كثيرا... ، فور أن تفتح الأبواب تندلق الدموع من عينيها دون قدرة لها على كبحها، هل من الرحمة أن

يجبر المرء على مغادرة منزله الوثير لينام وعائلته على البلاط دون تدفئة، ودون فراش ... دون اغطية... دون... دون... دون، أطفال شديدو النحول، جلودهم مزرقة، يجتمعون أمامها كالسيل: خالتو جبتيلنا أكل.

- وجبتلكم أواعي يا خالتو... وثلاجة وحرامات وفراش، ليتني كنت أستطيع تقديم المزيد، المتوفر من المعونات العائلية تقسم حسب حاجة كل عائلة لاجئة.

سرد الأحداث لا ينتهي، الحزن يخيم على النفوس، والمشاعر لم تعد تحتمل...

- وفاء وينك اشتقتلك، لا اتصالات لا مسجات حتى وانت ما بتبعدي عني نص ساعه ما عدنا التقينا.
- أنا كمان مشتاقيتلك، ونفسي نشرب فنجان قهوة سوا، بس مشغولة بجمع التبرعات للاجئين وتوزيعها، أغلب الوقت في عبين والقرى اللي حواليها.
- هلأ عرفت أني غريب عنك.

- ما تحكي هيك، أنت بتعرف أنك مجرى نفسي، ليه حبيبي هالشعور؟
- لأنه عم تجمعي تبرعات وما أشركتيني.

هي الأعلم بوضعه المادي المتردي، كيف يمكنها أن تطلب منه؟! بهذا حدثت نفسها...

- ما نقص مال من صدقة، أجاب تساؤلها.
- إذن رافقني نهاية الأسبوع إلى الرمثا، سنوزع المعونات هناك.
- اتفقنا.

هاتفت أمها

ما في أخبار عن بيت خالي يمه.

- ما في... وأنا فكري صار يودي ويجيب، ما خليت حدا جاي من هناك إلا ما سألته وبدون فايدة، صمتت فجأة كمن ينصت لحديث جانبي، ثم واصلت: بيرن علي رقم غريب خليني أرد بلكي يكون حدا من طرفهم.
- طيب طمنيني.

أنجزت العديد من الأعمال قبل معاودة والدتها الاتصال بها: مرة خالك وولادها بالزعتري من أسبوع، قالت أمها بلهفة: سألتها ليه ما أجو لعنا دغري، بس الظاهر ممنوع، وخاصة للي بيدخلوا بدون جوازات سفر، ما بتعرفي حد يطلعهم من المخيم؟

- ممنوع لأنهم لاجئين الحكومة ما بتقبل، حتى لو أثبتنا أنهم قرايبنا، وأنه عنا استعداد على استضافتهم.

- مش معقول أخليهم بالمخيم، أنت عارفه الأوضاع هناك، كيف بدي أخليهم يناموا بخيم والحمام مشترك، و الجو بارد كثير، والخيم بالشتوية بتغرق، حاولي تشوفي حد يساعدهم يا ماما، أو بروح أنا أحكي مع أي مسؤول يساعدني.

لم يكن كلام أمها تهديدا بقدر ما كان تصميما، هي العالمة بعنادها في مثل هذه المواقف: حسنا سأرى ماذا يمكنني أن أفعل، سأتوجه في آخر الأسبوع للرمثا، أرجو أن ألتقي بأحد يساعدني، وسأحاول زيارتهم في المخيم أيضا.

أقلّت الحافلة مجموعة من الشباب والشابات المتطوعين للرمثا، أضفى إياد على الرحلة جوا ممتعا بخفة دمه، وطريقته بكسر حواجز التعارف، بدد التوتر بين المشاركين بترديد الأغاني الشعبية بمشاركة الشباب، ضحك عالياً عندما وصلوا لمقطع "يا شوفير دوس دوس الله يبعتلك عروس"، استبدل "شوفير... بإياد، وقال يمازحها: والعروس جاهزة أيضا، أتبعها بغمزة.

على أطراف الطريق التي تقود إلى وسط المدينة طالعتهم قصور الرمثا محاطة بأسوار عالية مزينة بأسيجة حديدية مزخرفة، مدينة مكتظة، في وسطها سوق سمي بسوق "البحارة"، كناية عن التجارة التي قامت على تبادل السلع بين درعا والرمثا، الأسلاك الشائكة والإجراءات الاحترازية من كلا طرفي الحدود لم تحل دون المصاهرة بين أهالي المدينتين، دخلت الحافلة لحي قديم بأزقة ضيقة، سكانه من اللاجئين، قسم المتطوعون بعضهم إلى فرق وانطلقوا لتوزيع المساعدات، ما كانت تتخيل أن يتصرف إياد بهذه المرونة وهذا اللطف مع تدافع العائلات لخطف المساعدات قبل أن تنفد، شد رسغها رجل طاعن في السن: الا يوجد مساعدات للمحتاجين الأردنيين؟

- لا يا عم هذه فقط لمن لا أثاث ولا غذاء عندهم.
- وهل تعتقدين أنني كنت لأطلب المعونة لو كنت أملك قليلا مما ذكرت؟

الحرج الذي سببته كلماته نبهت إياد للموقف: هل لك أن تقدم لنا كاسة من الشاي يا طيب.

▪ لو كنت أملكها لما توانيت، قبل أعوام لم يكن أهل الخير ليبخلوا على رجل مقعد وعائلته بما تجود به أنفسهم، ولكن منذ الثورة السورية وتدفق اللاجئين إلى بلادنا تم نسياني وعائلتي وغيرنا من المحتاجين، أراقب غيركم يتوافدون وفي أيديهم ما أتمنى لو أتناول بعضا منه، أتعلمون أن غالبية اللاجئين يبيعون المعونات الغذائية والأغطية وغيرها من الفائض عن حاجتهم التي تغدقونهم وهيئات الإغاثة بها بنصف السعر ونحن هنا نتضور جوعا؟

نظر إياد إليه مطولا، ودفع به كرسيه المتحرك إلى حيث أشار العجوز ليصل بيته، حاولت مرافقتهم، ولكنه استوقفها بنظرة من عينيه، غاب قليلا من الوقت وخرج من زقاق مليء بالقاذورات، ماذا حدث؟! وجهه كان قاتما وعيناه محمرة كأنه كان يبكي.

▪ لو رأيت واقع حالهم لأفرغت كامل تبرعات اليوم في منزلهم، هذا الرجل عنده من الأطفال ثمانية، ثلاثة منهم يعانون الإعاقة العقلية والجسدية، زوجته مصابة بالروماتيزم والضغط وذات الرئة، لا يذكرون متى كانت آخر مرة تناولوا فيها الدجاج، كز على أسنانه

وأعاد: الدجاج الذي نردد دائما أننا مللنا من تناوله، ما يفيض عن حاجتنا في يوم لا يجده الآخرون في عام كامل، هل هذا عدل؟

- تقدمت ناحية الزقاق فأمسك برسغها: تعالي لقد قدمت لهم المساعدة اللازمة، وفري على إنسانيتك صورة لن تفارقك ما حييت.

الإنسانية شعور لحوح ثقيل رغم ضرورته وأهميته، يبرع بملاحقتك، وسؤاله المتكرر لماذا لم تقدم المساعدة، لماذا تركت ضميرك يغيب، قرأت عن قصة في أحد كتب "باولو كويلي" تحدث فيها عن مسافر رفض تقديم أية مساعدة لمتسولة خلال لقائها في أحد الشوراع، لكن وبسبب نظرتها أعادته من الفندق للمكان الذي كانت تقف به، لم يجدها طبعا، وعاد مسافرا إلى بلده، ولكن إلحاح شعوره بالذنب دفعه لتجميع ما تمكن من راتب وعاد لنفس المدينة بحثا عنها دون جدوى، وقرر أن يعود إلى مدينته بسبب عدم كفاية النقود التي يملكها للبقاء، وبعد أن حجز تذكرته للعودة اصطدم بالمرأة في طريق خروجه من مكتب السفريات، أخرج كل ما تمكنت يده من الوصول إليه في جيبه وأعطاها إياه، شعر بالراحة... وحمد الله كثيرا أنه تخلص من حمله.

دوّى صوت انفجار قريب، اهتزت الأرض تحت أقدامهما، تصاعد دخان كثيف من خلف الأبنية التي تفصلهما عن الأراضي السورية، أجفلا وهرولا تجاه الصوت: لعلها قذيفة سقطت في الأراضي الأردنية وأصابت أشخاصا، كان السكان يمارسون أمورهم وكأن شيئا لم يحدث، توقف إياد وسأل شابا قريبا: ما سمعت صوت الانفجار قبل شوي؟

- سمعته كيف ما بدي أسمعه، أصلا تعودنا عليه ليل نهار القصف بسوريا والصوت عنا، فيه قذائف كثير اخترقت بعض البيوت القريبة، غير اللي تصدعت من قوة الصوت، القرى الأردنية على طول الحدود السورية بتعيش القصف وكأنها جزء من سوريا.
- طيب ما بتخافوا؟
- يا خالي ما حدا بيموت ناقص عمر، وبعدين بحكيلك تعودنا، الله يكون بعونهم ليل نهار بتشتي براميل متفجرة فوق روسهم.

طار الفرح من نوافذ الحافلة، عادوا محملين بالبؤس، والحاجات غير المقضية معلقة فوق أيديهم:

- اووو لقد نسيت، كيف حدث هذا ؟ قالت لإياد: كان يجب أن أذهب لزيارة عائلة خالي في مخيم الزعتري اليوم في طريق عودتي، والآن ونحن على مشارف عمان لن أستطيع العودة، ستغضب أمي... ومعها حق، فلا حجة لي في نسيان أمر مهم كهذا.

تنهدت وطأطأت رأسها، دمعت عيناها، حجم المسؤولية الملقى على عاتقها أضعفها وزعزع قوتها، لمست يده ظاهر يدها وضمها بين أصابعه، نظرت ناحيته، فهمس: لا تقلقي سنزورهم غدا، العالم خلق في ستة أيام، وما أنجزناه اليوم كان بحاجة لثلاثة أيام على الأقل لإتمامه، امنحي نفسك قسطا من الراحة، أنت متوترة ومتعبة، جذب رأسها وأراحه فوق كتفه، تشبثت بساعده، وحاولت أن ترخي جسدها.

رنّ هاتفها: إنها أمي

- ألو هلا يمه، لا والله اليوم انشغلت وما قدرت أروحلهم بكره من الصبح إن شاء الله بكون عندهم، وبشوف الطريقه اللي ممكن أطلعهم من المخيم فيها.

أسلوب أمها الغاضب بالحديث لون وجهها، شعرت بالحرج خوفا من أن يكون إياد سمع الشتائم القاسية، حاولت الضغط على زر تخفيض الصوت فأمسك إياد بالهاتف:

- ألو خالتي، كيف حالك؟

همست بخوف:إياد شو عم تعمل هلأ بتعصب زيادة. رفع يده في إشارة لها لتصمت، لن تتحدث إليه أمها بما يسيء، وحتى أنها لن تشعره بأن محادثته لا تعجبها، ولكنها ستصبه في وجهها عندما تراها.

- أنا إياد... كنت اليوم مع الشباب في مهمة توزيع المعونات، بذلوا مجهودا كبيرا، واشتغلوا عن أيام، خالتي خفي على وفاء شوي، عم تتعب كثير ومرهقة، لا لا مو مريضة، بس صاير وجهها أصفر...

أتبعها بضحكة مرحة، لقد أخبرتني الكثير عن لطفك، وعن كونك أما لا مثيل لها، أتوق للقائك في القريب العاجل.

لم تنس زيارتهم، ولكنني أخبرتها أنني أعرف بعض الأشخاص الذي يستطيعون تهريب العائلة من المخيم، وطلبت منها أن لا تخبر أحدا حتى أتفق معهم، لقد أحسنت تربيتها، فحتى وهي تتلقى الشتائم لم تبح لك بالسر، -مزاحه وحديثه بأريحية معها أزال التوتر، وسمعت أمها تضحك-: ولكن خالتي سأقوم بكل هذا إن وعدتني أن لا تصرخي بوجهها حتى تصبح في بيتي، إذ سأقوم بذلك بدلا عنك، نكزته بخاصرته.

وأنا سعدت بالحديث معك، ليلتك سعيدة، أبعد الهاتف خلف ظهره وقال تريد الحديث إليك: سنتفاهم على هذا لاحقا، لم يكن صوتها متوعدا كما أرادت أن تبدي لوفاء، لقد شعرت بابتسامة الرضا.

... هل أنت مجنون، ضربته على صدره بيدها: أنا مجنون وفاء، أبذل عمري لترتاح، وعندي استعداد أن أبرم اتفاقا مع الجان ليحفظوا هذه الابتسامة على وجهك، حاولت أن تخبئ احمرار وجهها بظلام الليل

خلف شباك الحافلة، أمسك بذقنها ولف وجهها ناحيته: لم أعد أطيق أن تبقي بعيدة عني، سأعمل على أن نتزوج في أقرب وقت ممكن.

أوصلها لشقتها: خذي حماما دافئا ونامي، سنغادر باكرا.

- هل ستذهب معي حقا؟
- لن أدعك تذهبين وحدك للمخيم، وفعلا أنا أعرف أشخاصا يستطيعون تهريبهم، أرجو أن لا نحتاج إليهم.

قبّلها على جبينها: ليلتك سعيدة يا جميلة.

تركا بطاقتيهما الشخصية على بوابة المخيم لدى رجال الأمن، حيث الحراسة المشددة، وأفراد الدرك في كل مكان، خارج السور الحديدي المحيط بالمخيم عالم مختلف عما في داخله، ليس فقط بالبحر الممتد من الخيم البيضاء الموشحة بالحروف الإنجليزية الزرقاء التي تدل على المنظمة الأجنبية التي أنشأت الخيم، بل بالأعداد الكبيرة من السكان والشوارع الطينية بفعل المطر.

أحبال غسيل مشبعة بقطع ملونة بعضها ممزق، أمام أحد الخيم أوقدت أم نارا لطهو الطعام، وعيون أطفالها ترصد الزوار الوافدين.

عبوات لجلب المياه من المكان البعيد المخصص لتأمين مياه الشرب، وعلى بعد غير هيّن حمامات عامة يستخدمها كل من في المخيم، أمسكت لا شعوريا بيده أثناء عبورهما بقعة تجمع فيها ماء آسن، حاولت نقل قدميها دون أن تبتلا، غير عابئة بالوحل الملتصق في أسفل حذائها، مر من جانبهما بائع شاي متجول: شاي آنسة، شاي استاز؟ لا ما بدي شكرا.

أمام دكان انشىء من الصفائح المعدنية لبيع الخضار عجوز يجمع علب الكولا في كيس بلاستيكي بغية بيعها، وأطفال دون أحذية يهربون إلى خيمهم طلبا للدفء، مجموعة كبيرة من الخيم تساقطت أطرافها، فهدمت على من فيها بفعل العواصف، وشرد سكانها، قطع هزيلة من الأثاث في أرضية بعض الخيم ابتلت من الماء المتسرب إلى داخل المساكن التي لا تقي من يسكنونها.

لم يطل سيرهما حتى أطل عليهما هيثم أصغر أبناء خالها، شاب في مقتبل العشرين من عمره، ضمته إلى صدرها كالأم الحنون، وشعرت بمحاولاته الانسحاب خجلا، ثم نظر حوله ليستطلع ردات الفعل، كيف تقنع المتفرجين أنه طفلها الذي لم تلده رغم أنه لا يصغرها إلا بأعوام قليلة! انطلقت بعض الضحكات والهمس من حولهما: تعالي خيتي هاي الخيمة قريبة، تقصد أن يعلو صوته ليسمعه جيران المكان، عرفته على إياد... وسألته كيف يديرون حياتهم هنا؟

تنهد حتى شعرت وكأنه يقتلع الخيم أمامه: خليها على ربنا، هربنا من تحت القصف وجينا على البهدله وقلة القيمة، ما عم ترد علي

أمي أنه نرجع لبلادنا، بدها تحاول تنقذ حدا من أولادها من الموت حسب ما عم تحكي، هي وصلنا.

استقبلتها زوجة خالها على باب الخيمة بمحاولة لرسم ابتسامة انقلبت إلى بكاء ونشيج... شاركتها به بيلسان، طأطأ هيثم رأسه ودلف إلى الخيمة، ضمتهما وتحررت دموعها، واقع حالهم يدمي القلب.

الجدران القماشية تضم داخلها فراشا معدودا لقاطني الخيمة، وقليلا من الأغطية الخفيفة، وزعت على الأرضية بعض الأواني لجمع قطرات المطر المتساقطة من شقوق في سقف الخيمة، وبعض أدوات المطبخ الضرورية: كيف تطبخين ومن أين تأتون بالطعام؟ سألهم إياد.

- عندما وصلنا سلمونا موادا غذائية كالأرز والعدس والفاصوليا وبعض المعلبات، تدفئة واحدة، فراشا وأغطية، سجادة خفيفة كما ترون.

بالقليل من المال الذي كنا نملكه ابتعنا فيما بعد ما لزمنا، أقوم بطهوها على نار يشعلها هيثم بما يتوفر من بقايا أخشاب، مجرد البحث عنها يأخذ نصف يوم حتى يؤمنها، أنت تتذكرين كيف كانت حياتنا في

سوريا وفاء، عادت للبكاء: أي مصير هستيري ينتظرنا، لا أعتقد أنني سأتحمل المزيد.

دخل رجل طويل في مقتبل العمر، وهرعت بيلسان لملاقاته: زوجي قاسم، رحب بهما وجلس في ركن بعيد عنهما، خجولا هادئا، لم يتفوه بكلمة طوال مكوثهما إلا عندما ذكرت وفاء وضع المخيم المزري أثناء هطول المطر، وكيف تغرق الخيم ويبتلّ الفراش: من أخبرك بهذا؟

وسائل الإعلام لا سيرة لها إلا أوضاع اللاجئين، ووضع مخيم الزعتري تحديدا، وقد عاينته بعيني قبل قليل.

- شوفي لألك أختي: نحن وجبة دسمة تتسابق وسائل الإعلام لالتهامها، منهم من يختار طفلا نشيطا جريئا ليتقمص دورا في فيلم وثائقي يعكس مأساتنا مع بعض التهويل.

وسائل الإعلام مرآة مشوهة في أغلب الأحيان تلتقط البشاعة وتعكسها بالطريقة التي تحقق لها جمع أكبر عدد ممكن من المشاهدين، تستعطفهم وتدفع بهم للبكاء من خلال مصور كل ما يفعله التجول بكميرته ساعة أو أكثر يعود بعدها للجلوس خلف مكتب مريح بعد أن

يشعل سيجارته ويتناول ما يطيب له من الطعام مع رجال المونتاج لإخراج فيلم يعبر فيه عن البؤساء، ومن ثم يكرس جلّ وقته لاحقا في مراقبة مؤشر ازدياد أعداد المشاهدين، ومدى سرعة تناقل وسائل التواصل الاجتماعية لهذا الفيلم، مشاركة وتعليقات وإعجابات... أصبح اللاجئون كمية أتعلمون كيف؟ سأقول لكم كيف: من خلال جمع أكبر كمية من المتعاطفين الذين يساعدون في استمرار تصاعد وانتشار شهرة القناة أو الصحيفة أيا كانت... وتشتهر على حسابنا، نعم نحن نعيش في عالم ينمو ويكبر على حساب مأساة غيره.

انسحب بهدوء كما دخل، لحقت به بيلسان ولم يعودا للخيمة خلال تواجدهما، خيم صمت ثقيل قطعه إياد: ما بتقدروا تعملوا خروج من المخيم بحكم تأمين مسكنكم وناس يستضيفوكم؟

- نحن لاجئون لا نملك وثائق دخول قانونية، وهذا يحول دون خروجنا من المخيم بشكل قانوني، إلا إذا وجدنا من يخرجنا تهريب.
- وهل سجلت حالات هروب غير قانونية من قبل؟
- نعم، لكنهم يطالبوننا بمبالغ كبيرة تفوق قدرتنا على دفعها.

نظر إياد ناحيتها وقال: أعتقد أنني أستطيع تدبر الأمور، أخبرتك سابقا أنني أعرف بعض الأشخاص ممن يستطيعون تهريبهم.

ثم التفت ناحية زوجة خالها: سننسق معكم من خلال هذا الهاتف -مد ناحيها هاتفا أخرجه من جيبه- في كيفية خروجكم بأقرب وقت، لن ندعكم هنا فترة أطول.

مر أكثر من أسبوع ولم نتلق جوابا من جماعة التهريب.

- لا تقلقي اتفقنا أنني لن أدفع لهم إلا بعد أن يتموا عملية التهريب، وهذه العمليات تحتاج إلى تنظيم وتنسيق، لا تتعجلي.
- لقد رأيت واقع المخيم المزري، وخالي ربى أبناءه على العز والحياة المرفهة، لا أعلم كيف استطاعوا أن يتحملوا هكذا حياة كل هذه المدة!
- قضاء الله، ومثلهم كثر، هناك من فقد عائلته كاملة أثناء القصف تحت سقف بيته، احمدي الله على أنهم ما زالوا أحياءً يرزقون، وخالك بخير في بيته.
- في بيته صحيح ولكنه ليس بخير، الخطر يحيط به وبمن تبقى معه من أبنائه من كل الاتجاهات، لن نعلم من أين تأتي الضربة التي تقصم ظهورنا.

تناولت رشفة من فنجانها، وتأملت المارة أمام المقهى: اسمعي، قاطعه رنين هاتفه: انظري... ووضع شاشة الهاتف أمام عينيها بسرعة: إنهم هم.

- آلو، نعم هم ينتظرونكم، نعم سأتصل بهم حالا، النقود جاهزة فور أن يصلوا إلينا، اتفقنا.

سيخرجونهم غدا عند المساء بعد أن يكملوا عملهم، سيخفونهم تحت الأغطية في (البيك أب)، وسننتظرهم في منزل الجماعة في "المفرق"، سأتصل بهم للتنسيق ونتفق على بقية المبلغ المطلوب.

- أعتقد أنهم غالوا في طلب ٢٠٠ دينار على الشخص لتهريبه، ألم تساومهم!
- بلى فعلت، إجابتهم واحدة، إن لم يعجبك المبلغ فابحث عن غيرنا... حتى في التهريب هناك سوق سوداء.
- لما أشعر بأن "المفرق" أصبحت في دولة أخرى، وأنها تبعد آلاف الأميال عن عمان؟
- الترقب يبطئ الشعور بالزمان والمكان، حتى لتشعري بأنك مهما قطعت من أميال لا تبرحين مكانك.

توقفت السيارة أمام أحد المنازل: هل هذا هو البيت؟

- حسب وصف الرجل لي فهذا هو.
- ولكن ألا ترى أن لا أثر للبيك أب، والمكان هادئ لا يدل على أنهم وصلوا بعد.
- ابقي هنا، سأستعلم من أهل البيت.

بنصف باب مفتوح رأت إياد يتحدث مع أحدهم، عاد ناحيتها: تعالي إنهم في الداخل.

أربعة أجساد منهكة بملابس متسخة ممزقة، وحقيبتان تحملان الملابس الضرورية، رمت زوجة خالها بجسدها على فراش قريب من الباب، بيلسان جلست على آخر الدرج المؤدي للمنزل إلى جانب زوجها الذي غلف رأسه بيديه، أما هيثم أصغر أبناء خالها فرمى نفسه على أقدام والدته واجهش بالبكاء.

- كانت أصعب عملية تهريب قمت بها حتى الآن، تعرضنا للملاحقة من الأمن لمسافة أميال، ولو أنني لا أعرف الطريق لكنت وجماعتي بالسجن، ولقذفوا إلى الأراضي السورية صباح الغد، أشار ناحيتهم.

- اعتقدنا أنكم لم تصلوا بعد، فلم أرى سيارتك في الخارج!
- ركنتها في مخزن الجيران إلى أن ينتهي بحث رجال الأمن عنها، هل تسمح... أريد الحديث معك على انفراد.

دخلت امرأة في العقد الرابع من عمرها، تحمل صينية فوقها كاسات من الشاي، وضعتها جانبا وبتعاطف: احمدوا الله انكوا وصلتوا بالسلامة، حتى لو لحقوكوا الأمن بس هيكم هون بأمان، والأمان بالله.

مشهد حي للبؤس لم يفارق ذاكرتها لشهور عديدة، حتى وهي تجلس معهن أمام المنزل يحتسين قهوة المساء بابتسامتهن العريضة، والراحة تنعكس من خلال حديثهن، لم تمنع بعض الكلمات القلقة من الانفلات عند الحديث عن خالها الذي انضم إلى الجيش الحر واثنين من أبنائه: حكالي رامي أنهم حاصروا كثيرا من الأحياء والناس بتموت من الجوع؟! سألت أم إبراهيم.

- الناس عم ياكلو خبز يابس، حتى خبز ما عم يلائو ياكلوا، فيه جماعة بياكلوا بسس وكلاب من الجوع، وفي عالم باعو سيارتن وأخذوا

بتمنها كيلوين رز، أجابت زوجة خالها، ما بنئدر نحكي معن على الشام، خطوط التلفون منفصلة إلا لما هنه يدئولنا، ربنا ينصرن يارب.

- ولما يتصلوا ايش بيحكوا، فيه إشارات لتوقف الحرب وترجعوا لبلادكم.
- والله يا أختي يا أم إبراهيم... عم يئولو أنه تدخلت جهات من برا سوريا، ما عادت بين الجيش النظامي والجيش الحر، الجنود الإيرانيون عم يدبحوا الناس بدون رحمة، قاطعتها بيلسان: يا ربي دخيلك يا خالتي أم إبراهيم لو كنت معنا وئت مشينا لنوصل للأردن، عطش وتعب وناس عم تموت أدامنا من القصف، شفنا شوفات يا ربي دخيلك، شهر وأكتر ونحنا متل اللي عم يلعب تخباية عن الجيش النظامي لحتى ما يقصفونا، ما كنت أتخيل نوصل سالمين.

أطل هيثم من الباب: يا ساتر.

- اطلع يا أمي ما في حد غريب، خالتك أم إبراهيم متل أمك.
- بدك شي يا أمي رايح للشغل.
- يرضى عليك، رح تتأخر؟

- حسب المعلم ومتى بيسكر الورشة.

رخص الأيدي العاملة السورية، وحاجتهم الملحة للعمل، أوضاعهم كهاربين من المخيم أدى إلى الاستعاضة بهم عن أعداد كبيرة من الأيدي العاملة الأردنية في أعمال المياومة من كلا الجنسين، حاجتهم للمال دفعتهم للعمل بمجهود مضاعف، وبأقل راتب ممكن أن يتقاضاه أي عامل، لم يخل محل تجاري من عامل سوري أو أكثر، بدأ هذا يثير ويصعد اعتراض الأردنيين والمطالبين بحل جذري من الحكومة.

ولكن ماذا تستطيع أن تفعل الحكومة للحد من اللجوء السوري الى الأردن، وكيف يعيش السوري في الأردن دون دخل مادي يقضي حاجته وحاجة عائلته؟!

استغلت إجازاتها التي كانت تقضيها في عمان، لزيارة "عبين" والاطمئنان على الضيوف، ولمساعدة أمها والتخفيف عنها.

- وفاء بدي تعلميني على "اللاب توب" عشان أحكي مع أولادي وأشوفهم على "الكميرا".

- ايش يا أم إبراهيم، صايرة تواكبي التكنولوجيا، واتبعتها أمها بضحكة شاركتها بها بقية النسوة.
- بطل حدا يشتاق لحدا، من لما تعلمت على التلفون وأنا كل ما أشتاق للأولاد أشوفهم وأشوف أولادهم صوت وصورة، صحيح مش مثل لما يكونوا معي وحوالي، بس الريحة ولا العدم.

بدأت بتشغيل برنامج "السكايب" وتعليم أم إبراهيم كيفية طلب الرقم وتشغيل "الكميرا": تأكدي من أن الجهاز موصول بشبكة "الانترنت"، ومن ثم تختارين هذا البرنامج: ياااا بيي يا بيي تركتنا ورحت يا بيي، شق الصراخ جدران الغرفة، وثقب أذن السكينة حولها.

- ايش فيه، من وين هالصراخ؟! جفلت أم إبراهيم.
- ركضت وفاء دون وعي باتجاه منزلها حيث تعالى الصوت كلما اقتربت: كانت زوجة خالتها مسجاة على الأرض وبيلسان تلطم وتبكي: وين رحتوا وتركتوناااا

غادرت الحياة وجه والدتها وهي تحاول إسعافها، ركضت ناحيتها: ايش فيه، مالها، شو صاير، احكي يمه؟

اعتقدت لوهلة أن بيلسان تصرخ خوفا على والدتها، نزلت صاعقة قصمتها وفتت داخلها: خالك وولاده استشهدوا يا وفاااء... أرخت أقدامها وأسلمت جسدها للأرض وداهمها البكاء، والدتها تبكي!! من بين نشيجها صاحت بأعلى صوتها: تيتمت يا وفاء.

انقضت ثلاثة أيام العزاء، شعورها بالحزن امتزج مع قلقها على إياد، حاولت الاتصال به، أرسلت له الكثير من الرسائل تخبره عن مأساتهم، وأنها بحاجة إليه ليخفف عنها... دون أن تتلقى إجابة تحسم الحرب المشتعلة داخلها.

تعرفت في العزاء على نسوة من سوريا، منهن من كانت تجمع أولادها في غرفة واحدة عندما يبدأ القصف، فإذا ما قصف البيت تحقق موت العائلة دون ناجٍ واحد يحمل في قلبه الحسرة ويعاني اليتم.

أخرى ترسل ابنتها لمدرسة في البلدة المجاورة لبلدتهم، تتعرض منطقة المدرسة فجأة للقصف، فلا هي تستطيع إحضار ابنتها أو الوصول إليها، ولا ابنتها تستطيع العودة إلا بعد فترة من الزمن.

وتلك امرأة ما زالت تنتظر عودة زوجها الذي فقدت أخباره منذ بدأت الثورة، ولا علم عندها إن كان ما يزال حيا أم مات!

انفردت كل منهن برواية ملحمتها، وتشابهن في نسج بيت من الحنين للماضي بقسوته.

قادت سيارتها فور وصولها عمان إلى شركته، لكنها غيرت مسارها في اللحظة الأخيرة إلى بيته بعد أن أخذت العنوان من فداء التي اعترضت: ستذهبين إلى منزله؟هل فقدت عقلك!!

- أريد الاطمئنان عليه فقط، أطلبه منذ أكثر من أسبوع ولا أتلقى إجابة... أنا بحاجته كثيرا أشعر بي أنهار.
- التقيه في شركته، في مكان عام، في مقهى... ولكن ليس في بيته وفاء.
- لا تخافي، أنا لست بمزاج لأي مشاعر قد تقودني إلى تصرف أندم عليه، وأيضا نحن في سن يمكننا السيطرة على مشاعرنا وتصرفاتنا... نطمح إلى تكوين عائلة في القريب العاجل، وليس إلى مغامرة عاطفية سريعة وعابرة.
- الصدمة والضعف يقودان لا شعوريا إلى الاستسلام، ولن تدركي هذا إلا متأخرا، الظاهر أن قلبك بدأ يستلم زمام الأمور بدلا من عقلك، وأخشى أن يدفع بك للتصرف بطريقة تسيئين بها إلى نفسك.

- أنهت المكالمة: لا داعي للقلق، ستكون زيارتي قصيرة، سلام.

قادها العنوان إلى منزل فخم مزين بالحجر الأبيض، وقرميد يغطي شرفة واسعة، يحيط به سور عال من الحجر أيضا، وأشجار زينة نسقت بعناية على الرصيف الخارجي، ركنت سيارتها خارج البوابة، ومشت فوق ممر واسع ملتو رتبت أصص لنباتات الزينة على أطرافه، تتخللها ممرات من حجارة مربعة مصفوفة خلف بعضها إلى باقي الحديقة الخضراء، لم تطل النظر... وتوجهت مباشرة إلى باب المنزل.

هل تدق الجرس، أم عليها التراجع والعودة إلى عملها كما أشارت عليها فداء، لا يمكنها أن تتخلى عن مبادئها التي ترعرعت وتربت عليها، كما لا يمكنها أن تتصرف بجنون بعد أن عرفت برجاحة العقل... والتفكير الرزين.

همت بالمغادرة، خاطبت نفسها قائله: سأطمئن عليه فقط... دقت الجرس وانتظرت، صوت خطواته نحو الباب دفعها لرسم ابتسامة عريضة.

فتح الباب وقابلها بنظرة تعاطف حلت مكان ابتسامته المرحبة.

رمت بنفسها بين يديه، شعرت بكفيه الدافئتين تجذبانها إلى صدره، أرخت أعصابها وبكت: أين كنت... أرسلت لك الكثير من الرسائل، حاولت الاتصال مرارا، كيف تجرؤ على تركي هكذا.

- همس: ااش اهدأي، فقدت هاتفي قبل أيام، واليوم فقط حصلت على رقمك من فداء، أبعدها قليلا ومرر إبهامه فوق خدها يمسح الدمع العالق: عظم الله أجركم، أشعر بالتقصير... ولكن أقسم لو أنني علمت لوقفت إلى جانبك... أحتويك وأخفف من ألمك، هيا ادخلي.

ترك الباب مفتوحا، وقادها إلى صالة صغيرة مليئة بنوافذ طويلة سمحت لأشعة الشمس بإضاءتها والتجوال فيها براحة لا يعرقلها سوى كرسيين وضعا قبالة بعضهما، وفي الزاوية طاولة متوسطة الحجم فوقها مزهرية تحتوي على بعض الورود الذابلة.

▪ فقدت عائلتي، أشعر بالوحدة، لماذا يرحل كل من أحب! وكأن الموت يتقصد خطفهم وتعذيبي بغيابهم.

جلسا على كرسي طويل: اقتربي، أراحت رأسها على ركبتيه، دفع أصابعه في شعرها وأخذ يمشطها: أعمارنا مقدرة يستردها الموت حينما يحين وقت السداد.

حاولي أن تسترخي وتنامي، أنا هنا معك لن أتركك، ضمت كفه غمغمت وغفت.

▪ وفاء... حبيبتي استيقظي، لقد تأخر الوقت.

حجبت الضوء عن عينيها بذراعها ومطت جسدها بكسل، وكأنها نامت عاما كاملا استردت خلاله عافيتها، وتحسن مزاجها.

▪ صحة النومة يا جميلة، قبلها على خدها، هيا لقد أعددت لك العشاء.

▪ ألا يجوز أن أقضي ليلتي هنا؟

- وكأنما مسته الكهرباء: لا يجوز طبعا، سنجعل من أنفسنا مضغه في فم من يسوى ومن لا يسوى.
- وماذا عساهم يقولون... إننا واقعون في الحب، أليس هذا هو حالنا، نحن غارقون يا عزيزي وما زال الحب يسحبنا إلى العمق كل يوم أكثر من ذي قبل، ألست معي؟
- بلى... ولكن افهميني، أخذ يتحدث معها كأنها ابنته: أخاف عليك... ألا تفهمين، أنت أكثر هشاشة مما ظننت، ولا أريد أن يصيبك أي مكروه بسببي، أو أن تسمعي كلمة من أحمق يشوش بها حياتك، أنا أحبك جدا، أتمنى أن نرتبط اليوم قبل غد، ولكن حتى يأتي الوقت المناسب لن أفعل ما لا يليق بمكانتك وبقلبك، يجب أن أحل مشاكلي أولا... والتي يتوجب علي أن لا أقحمك فيها.
- قاطعته: لم آت إلى هنا لاستعجالك أو للضغط عليك، أتيت فقط لأنني شعرت بحاجتي إليك، لشعوري بالنقص الذي خلفته غيبتك، مات أقاربي... وأنت اختفيت، شعرت بأن هناك من ينازعني على روحي، لماذا تصر على إحباطي هكذا، ألم نتفق على أن نطلق لأنفسنا العنان!

قابلها صمته فقالت معترفة: لن أنسى نومي كطفلة على ركبتيك بعد أن قض الخوف والإرهاق مضجعي لليال عديدة، أصبح مفهوم الأمان هو مرور طيفك في ذاكرتي، وقفزه بشقاوة إلى واقعي، هذا الشعور يدفعني للتصرف دون مراعاة للعادات والتقاليد، لن أخشى أن يضبطني أحدهم متلبسة في قلبك، يقيني بأنك هنا الآن يكفيني، أما المستقبل فهو أن تحجب عنا الغياب، وتحتجز الفراق في قارورة سنرميها معا في أول يوم نزور فيه البحر.

تقدم إليها ولثم باطن يدها بشفتيه: في مرحلة سابقة ظننت النساء تخصص نكد واستغلال لكل ما يتوفر لها أن تحصل عليه من الرجل، مال... مشاعر، وحتى شكل جذاب تتفاخر به أمام صديقاتها ومعارفها،كم كانت مسممة أفكاري بالنساء قبلك.

شعور ما كالحريق أخذ الطريق السريع بين ضلوعها صعودا حتى وسط رقبتها، دفعها لتقول: هل كانت لك حياة قبلي! ألم تولد في نفس يوم ولادتي، والآن نحن في مرحلة الطفولة، ترى العالم من خلال عيني، وأصفه لك من خلال مشاعري تجاهك.

ضحكته أخجلتها، حاولت أن تجلس: إلى أين؟ حبسها بين ذراعيه، رفع ذقنها في مواجهته: تغارين!

أحرجتها الوضعية، حاولت أن تحرك وجهها... أفقدتها نظرته توازنها، شعرت بجذعها يلين تحت ذراعه: انظري إلي.

- هل تحاول إحراجي! أفلتت منه، تعلم أنني خجولة.
- عندما نتزوج، لن تستطيعي تحريك وجهك بعيدا عن وجهي ولو سنتمترا واحدا...

ارتسمت في روحها فرحة وليدة، خشيت أن تخرج للسطح فتموت، هي وهو في بيت واحد، تنتظره حتى يكمل عمله، ويخاف عليها إن هي تأخرت... تقرأ كتابها مسترخية على ركبتيه... يلعب بشعرها ويتابع مطالعة كتابه، تركض لمعانقته إن دخل من باب المنزل، ويدور بها كما طفلة ترحب بوالدها، تشاكسه: هل أحضرت لي شوكولاتة؟

- يزيد من احتضانه لها: ألم أمنعك من أكل الشوكولاتة، لم أعد أحتمل يا حبيبتي أن تزدادي جمالا يوما بعد يوم.

ماذا لو تتم الأمور بهذه البساطة، نحول الخيال واقعا في التو واللحظة! شعرت بالدماء تغزو وجنتيها، وتلهب وجهها حتى قفزت ضحكتها خجلا من بين شفتيها.

- إلى أين وصلت؟
- إلى ما بعد يوم زفافنا.
- ولماذا قفزت عن فاتحة حياتنا سويا، ضحك بصوت عال... تخلي عن خجلك معي، لن يمر وقت طويل حتى تصبحي زوجتي، سأعمل بكل رغبتي وطاقتي على ذلك، استطرد قائلا: تعالي نتخيل سويا يوم زفافنا، ما رأيك؟

استرسل فرحا:

سنقيم حفل الزفاف في مزرعتي على طريق المطار، وسيضم القليل من المعارف والأقرباء، نظر إلى وجهها... لا أريد أن يشغلني

عنك أحد، حتى الموسيقى، أريد أن أسرق يديك من تحت الطاولة وأضغط عليهما برفق كلما شعرت بتوترك، ويطمئنني إبهامك بضغطة على ظهر يدي، سأستمتع بمراقبة توترك وتوردك...

قهقهت وقاطعته بضربة على كتفه بلطف: لئيم.

ضحكا سويا: انتظري لا تقاطعيني.

عند انتهاء المعازيم من العشاء –وقف كأنه يخطب-: شكرا لكم على حضوركم، وأعتذر منكم لأنني وعروسي مضطران للمغادرة... ثم سأخطفك.

لم تتمالك نفسها، فضحكت بصوت عال: أنت مجنون.

أمسك يدها من فوق فمها... وغلغل أصابعه بأصابعها...، سحبها لتقف قبالته، بلهفة: تخيلي معي هيا.

- اووووه... لا أرجوك، خيالي يأخذ استراحة في حضورك، كل أمنيتي أن أجلس معك ونتبادل أطراف الحديث، وها أنت هنا الآن، فلماذا أسعى لخيال يبعدك من أمامي، حتى وإن كان معك.

- جبانة، سأكمل وحدي: سأعمل أن يقابلنا ضوء خافت في غرفتنا بالفندق، وأنت كما أنت الآن ستخجلين وتتوقفين أمام الباب لا تقوين على الدخول، ولن أسمح لك بالتراجع.

استثارتها لمسة يده كأنها تيار كهرباء، شعر بذلك فرفع يدها وطبع قبلة على باطنها، تعاركت الدماء في قلبها، تسابقت إلى شفتيه لضمهما، تستمد منهما الحرارة وتوزعها على باقي جسدها، مغص لذيذ ألهب معدتها، ارتجفت كزهرة حركتها نسمات ربيع محملة بأنفاسه.

وضع يده تحت ذقنها... ورفعه لتلتقي بعينيه، نظرته الآسرة جمعت حنان العالم... قرب رأسه منها، فأمسكت يده بقوة... دفعها شعور الضعف لتعود برأسها للخلف... قرب وجهه أكثر وهمس في أذنها: ستكونين حبيبتي التي لن أتخلى عنها أبدا، سأسكنك في قلبي، وأغلق عليك ضلوعي، لن تشعري بالعالم خارجه، كل نبض فيه سيهتف باسمك، أحتاج الآن أن أحتويك كما يحتوي الأب ابنته، يااه كم أحبك.

أغلقت عينيها، ووضعت يدها فوق صدرها تهدئ صوت الطبول التي تدق بقوة معلنة ثورة المشاعر... طبع قبلة على جبهتها وضمها بين يديه، وتاهت.

- تنهد بعمق وقال: سنتوقف هنا الآن.

لم ترغب في الابتعاد عنه، لكنه أبعدها برفق: قلت وسأقول وأعيد لن أفعل ما يسيء لك.

- تداركت نفسها وحاولت أن تعود لانضباطها: أعتقد أن أجمل اللحظات تولد بعشوائية دون تخطيط، بفوضوية وجنون حد الهستيريا، حتى يتحقق الاندماج والتوحد.

- ابتعد عنها ووقف قريبا من النافذة: أصبحت كل شيء لي، كيف يمكن للمحتضر أن يعود للحياة دون إنعاش! أحتاجك لأتعلم المشي بعيدا عن الألم والخيبات والفشل، هل شعرت يوما بانسياب روحك من بين أصابع الموت لتتشكلي بروح جديدة لم تعرفيها قبلا، أنت الروح التي أحيا من خلالها الآن، اقترب منها ثانية... وضع يده فوق كفها وشد على أصابعها: ستكون نهايتي محتمة إن لم تكوني لي.

سواد المساء زاد لمعانا... والوقت طار بخفة... النوم حمل النعاس بحقائبه وتسلل من أسفل أبواب الليل مبتعدا.

- أصبحت مشرقة الوجه رغم قلة نومك، عيناك تشعان بهجة توزع الفرح على من تبصره.
- هل تصدقين فداء أنني أستيقظ ليلا في نفس الوقت الذي يستيقظ به، ودون أن يتصل أشعر به وبألم يعتصر أعصابي ، أتصل به لأطمئن عليه فيجيبني أنه متعب... عندما أحس بالتعب يخفف عني ويخبرني بنكات لأضحك.

غفوت الليلة الماضية على صوته، وصحوت صباحا على صوته، إياد مبعوث، لا لا ليس مبعوثا... هو رسول جاء ليوقظ الأمل في داخلي، يساعده على ارتداء فراشات تحمله فوق تعب اليوم، ليصل إلى المساء فيستقبله مرة أخرى، يخلع عنه الإرهاق ويضعه برفق في صوته لينام.

- الله الله على الرومانسية، اقتربت منها، وبدأت تتفحص وجهها: مين أنت رجعيلي صديقتي وفاء يا الله.
- ضحكتا سويا: بارع هو إياد، استطاع أن يمتلك مفاتيح شخصيتك وقلبك، ألم تقولي لي هذا في الماضي (أحتاج إلى شخص بارع في العثور على مفاتيح قلبي)، أرجو أن تنتهي معركته القانونية وزوجته قريبا، سمعت أن أوضاعه المادية تعاني أزمة كبيرة، وقد يخسر ثروته التي ستأخذ زوجته القسم الكبير منها، أما مشاريعه في سوريا فقد انهارت تقريبا.
- أنهكته الأزمات المتتالية، أعلم هذا... ولكن عندي إيمان بأنه سيتعداها كأنها لم تكن، ليتني أستطيع أن أقدم له يد العون، ليس فقط بالحديث معه، ولكن ماديا، تعلمين أن وضعي الاقتصادي ليس بأفضل من وضعه...

أمي تتصل كل يوم لتسألني ما الجديد بيننا، ومتى سيتقدم لخطبتي! أحاول أن أخبرها عن ظروفه، لكن الخوف يسيطر عليها وأعذرها، فقد شهدت سقوطي مرة.

- الحب إن جاء لا يمنحنا نعمة التعقل والتفكير بمنطق، نعم كان يجب أن تمنحي نفسك وتمنحيه بعض الوقت يا صديقتي، فأمور القلب لا تسير بسهولة كما تعتقدين، بعد أن تنطلق بسرعة قد يطرأ ما يعيق تقدمها، يجمدها أو يفقدها القدرة على تمييز وجهتها.

الحب أعمى فعلا، ولكن المحبين غفلوا أيضا عن أنه فاقد لهمته، سريع الشعور بالتعب، أو أنه يختار الطيران على مقربة من الفراق دائما... مهددا برمي نفسه فوق المتاعب والخلافات، فيسقط في منتصف الفراق.

- لا يجتمع إياد والفراق، فقد ألغى خوفه من فقداني نسبية حدوثه، بعض مواقفه على بساطتها... إلا أنها حفرت عميقا في داخلي، وتركت جنين الحب ينمو ويكبر.
- هذه ثقة عمياء؟
- وهل يكون الحب لو لم يبنى على الثقة فداء، حتى لو كانت عمياء... يسعدني أن تكون بصريتي مقرونة ببصره.

- ابقِ على حذر، يزيد خوفي عليك يوما بعد يوم وأنا أراقب اندفاعك نحوه بهذه القوة.
- تتحدثين مثل أمي الآن ، أكملت ضاحكة :خذي راحة يا ضميري..
- لا تنكري أنك تشعرين بالخوف.
- لا حب دون خوف، خوف من فقدانهم جراء أي ظرف، خوف من إهمالهم لمشاعرهم، خوف من أنفسنا أيضا، هو الشعور الذي يبقينا مستعدين لأي طارئ يحل فجأة على مشاعرهم ومشاعرنا.
- نظرت فداء إلى ساعتها:حسنا سيبدأ الاجتماع قريبا، هل جهزت الملف؟
- نعم فعلت، سأوافيك به إلى قاعة الاجتماعات... أتمنى أن يرسو العطاء على شركتنا، فقد كانت الفترة السابقة متعبة للجميع...
- كناري الجميل... قال إياد وهو يدخل مكتبها: ما اشتقتيلي يا شقيتي.
- ومين اللي أوهمك أني سمحتلك تغيب عن بالي دقيقة، ادعت الغضب.

- ما اتصلت ومشغولة من الصبح لهلأ، معقول إيادك حبيبك ما بيستحق منك شوية اهتمام!
- اووه إياد نحن لا نتوقف عن الحديث على الهاتف، وقد شعرت في الآونة الأخيرة انشغالك الدائم وزيادة عبء العمل، ناهيك عن الإرهاق الذي تعاني منه بعد كل جلسة محكمة... أنا مندفعة جدا نحوك، أجاهد كثيرا لأخفف الاتصال بك كي أترك لك مجالا تحل فيه مشاكلك، وتتصدى لادعاءات زوجتك...
- شكرا لمشاعرك... قالها بغضب وهم بالمغادرة...
- استوقفته: لا تغضب أرجوك، أحرق نفسي وأعتقد أنني بفعلي هذا أريحك، وها أنت غاضب.
- ومن طلب منك أن تفعلي هذا، هل فعلت!
- لا... ولكني فكرت...
- قاطعها: إذن كفي عن التفكير، وتوقفي عن منع نفسك عني، اتركيها تنطلق على سجيتها وعفويتها، سألتقيك بعد الاجتماع في الاستراحة القريبة... عندي الكثير الكثير من الحديث، اتفقنا!
- أكيد.

رغم محاولات فداء للفت انتباهه طوال الاجتماع، إلا أنه كان ساهما، تائها بوجه شاحب... نظره مصوب على نقطة غير مرئية خارج النافذة في السماء...

شعرت بأنفاسها تضيق، وبعينيها تحترقان وهي تراقب انسحابه من اجتماع يعد الأهم لعمله، سبقه اعتذاره المخنوق، وقد بدا جسده هزيلا... لا حيوية فيه على غير عادته.

نظرت فداء ناحيتها مستفسرة، فرفعت أكتافها بعلامة جهلها للسبب، تشتت انتباهها بين نقل نظرها إلى الباب على أمل عودته، وبين طاولة الاجتماع للإجابة على استفسارات العملاء، لم تشعر بالسعادة كما توقعت عند رسو العطاء على شركتهم، الإحباط أثقل صدرها حتى أنها لم تشعر بفداء عندما ضمتها إلى صدرها وقالت: الآن ستجنين ثمار تعبك غاليتي.

- قالت ساهمة: الحمد لله.
- اذهبي إليه وفاء، ربتت فداء على كتفها بحنان: كان منافسا قويا لنا... ما آلت إليه حاله محزن حقا.

لم تنتظرها لتكمل، أخذت حقيبتها وتوجهت للمقهى، دلفت إلى داخله بحثت بعينيها عنه، لم يكن له أثر، هناك أمر ما... شعور بالخوف هبط فجأة فأثقل أطرافها، طلبته على الهاتف لكنه لم يرد، أعادت الاتصال مرة وثانية وثالثة... وبعدها أرسلت له رسالة: إن لم ترد سأحضر إلى منزلك، سأبيت إذا اضطرني الأمر عندك.

لم تكد ترسلها حتى اتصل، قال بملل: أنا بخير... لما تفتعلين كل هذه الضوضاء.

- تجاهلت حدته: ألم نتفق أن ألتقيك في المقهى القريب؟!
- نسيت وعدت إلى الشركة لإتمام بعض الأمور العالقة.

بدأ يكذب عليّ قالت تحدث نفسها، أخذت نفسا عميقا لتبعد الشعور بالضيق: لماذا تكذب؟!

- عفوا، هل تتحدثين إلي؟!

شعرت بالخوف والغضب أيريد مني أن أبسط مفهوم الكذب والادعاء؟ ومنذ بدأنا اتفقنا على الصراحة مهما كانت الظروف: نعم لم

تنسى بل تناسيت، لو أنك أخبرتني بعدم رغبتك برؤيتي لتقبلت الموضوع، ولكن أن تكذب علي أنت يا إياد لا أصدق!

ساد الصمت فقطعه:

- نعم أعترف أني لم أرغب برؤيتك، ولكني لم أرد أن أخبرك خوفا على مشاعرك، وخاصة أنني من طلبت منك أن نلتقي، خلال الاجتماع فكرت في النجاح الذي تحققينه من خلال عملك... كان واضحا جدا من خلال المعطيات والأرقام، وأيضا النسب التي تناولتها فداء للدراسة التي أجريتها أنت، لا أستطيع أن أسحبك معي إلى الهاوية التي أسقط بها كل يوم أكثر من الذي قبله، أظن أنني تعجلت في البدء بعلاقة جديدة، وأنا لم أنته بعد من علاقة سابقة فاشلة.

أخذت تلميحاته تسقط فوق رأسها واحدة تلو الأخرى، حتى لم تعد قادرة على فهم نيته:

- ادخل في الموضوع مباشرة، تعلم أنني أفضل التصريح لا التلميح.

- لنبتعد عن بعضنا قليلا من الوقت، حتى أستعيد أنفاسي، وفي هذه المدة سيخف عنك الضغط من جهتي؟

شعرت بالوهن في أوصالها، ولم تعد قدماها تحملانها، فجلست على حافة سور مدخل المقهى:

- ألم تطلب مني أن أكف عن التفكير وأمضي معك على سجيتي وعفويتي قبل قليل؟ أم لم تكن أنت؟ لم أعد أستوعب هكذا فجأة قررت، لوحدك دون الأخذ برأيي، دون أن تعرف ما هي رغبتي؟ كيف اتخذت قرارا أنانيا بانفصالنا بهذه السهولة؟
- لم أقل انفصال، بل فترة استراحة لك أولا.
- قاطعته بعصبية مقلدة طريقته بالكلام: من شكا لك تعبي، هل فعلت؟

كان بعض المارة يرمقونها بنظرات تثير انزعاجها بسبب صوتها العالي وانفعالها الشديد:

- أريد أن أذهب سأنهي المحادثة الآن.

- إلى أين؟! قال بقلق...
- إلى جهنم وما شأنك أنت! لا تدعي خوفك علي وعلى مشاعري بعد الآن.
- لماذا تتصرفين بعدوانية، كان اقتراحا فقط، لن نعمل به بما أنك لا ترغبين، ولكنني أحذرك فقط من سوء وضعي.
- اقتراحك يعكس رغبة داخلية عندك بالانفصال... سلام.

لم تترك له مجالا ليرد، حاولت أن تفصل صوته المخذول من التكسر في أسماعها، أن تمنعه من النطق بما يشعل الإحباط وينثره في رأسها، بضغطة قوية على الزر الأحمر حاولت أن تجبره على الصمت، صاحت بوجهه الذي أطل من خلف ستار عينيها المطبقتين على شعورها بالخديعة: اصمت، اصمت الويل لك، كيف سمحت لأي سبب أن يقف حاجزا بيننا، أن يهوي في قلبي ويترك هوة تحول بيني وبين مسامحتك... لماذا؟

تجمدت حواسها، وكأن مشاعرها تسربت من ثنايا روحها حتى لم تعد تشعر برغبة في الحياة: كيف حدث وشعرت باليتم فجأة وكأنني أودعت جميع من ماتوا الثرى قبل قليل؟

أبي الذي وعدني أنه سيبقى معي إلى أن يزفني إلى زوج أختاره بنفسي: هل ستسمح لأقاربي بالوقوف في وجه اختياري أبي؟

طالت نظرته إلى وجهها كأنه يزرع في باطنها تصميم الثبات على اختيارها: هل ستسمحين لهم بذلك؟ سألها بهدوء.

- لا خيار للفتاة إلا قبول العريس الذي يختاره لها والدها، هذه هي بلدتنا... هذه هي عاداتنا...
- أنا معك، لن أتركك وحيدة، وسأساندك في أي قرار ستتخذينه، وأعلم أن ابنتي التي ربيتها على رجاحة العقل وتحقيق ما تسعى للحصول عليه لن تخذل نفسها أولا... ووالدها ثانيا...
- وإن جرفتني مشاعري نحو الشخص الخطأ، هل ستتركني أستمر في اندفاعي؟
- سأقدم لك النصيحة، وإن لم تنفع لتتراجعي عن موقفك، سأتركك تتحملين النتيجة.

فاجأتها إجابته، شعرت بالمسؤولية منذ صغرها، وبأن والدها قد أفلح في توجيه اختياراتها نحو الصواب حتى في الحب.

جذب متكرر في طرف سترتها دفعها للنظر بعصبية، لتواجه عيونا خضراء تحت شلال من شعر مبعثر، يغطي وجها أبيضا لطّخه العوز وترك آثار أصابع صفعته القوية على وجهها حتى تجمعت دموعها دون أن تسقط، ابتسامة الطفلة اللطيفة دفعتها لتجثو قريبا منها: آنسة أنت جميلة، قالت ببراءة.

- وأنت أيضا، ما اسمك؟
- كان اسمي في سورية ولاء، وبعد أن رحلنا إلى هنا أصبح ولاء السورية، اشتري مني علكة... وابتسمت.

أخرجت محفظتها وقالت: ما بدي علكة... بس حابه أعطيك هذول المصاري، همت بإعطائها النقود... عبست الطفلة وقالت: لا ما بدي أنا مو شحادة... خالتي رح أعطيكي بحئن علكة، أحرجتها فقالت تدافع عن نفسها: بس أنا ما باكل علكة... وبما أنه ناديتيني خالتي، الخاله حابة تعطي بنت أختها مصاري تشتري فيهم شكولاتة.

- لا ما بدي جيب شوكولا، قالت بحنق تاخدي علكة أو بفل؟
- سآخذها، ولكن أخبريني أين هم أهلك.

ونظرت حولها تبحث عنهم، ناولتها الفتاة العلكة وقالت وهي تهم بالمغادرة:

- لقد ماتت أمي بعد أن قصف منزلنا، ووالدي فقد رجليه، فقام بتزويج أخواتي الثلاث هنا ليريح كاهله من المصروف، أعمل وبقية أخوتي لنجمع مالا يكفي لنعيد بناء منزلنا في سورية من جديد...

تركتها وتوجهت إلى سيدة قريبة، أحلام بريئة رغم الخراب والفقد الذي يحيط بالفتاة محاولا تقييدها، إلا أنها أطلقت لطموحها العنان، حتى أنها لم تفكر فيما إن كانت النقود التي تجمعها وإخوتها كافية لتحقيق حياة كريمة لهم بعيدا عن موطنهم هنا أم لا.

نظرت حولها، وقفت على قدميها: وأنا هنا في وطني وأشعر بالغربة، حاولت وضع محفظتها في الحقيبة، فلمعت الأسورة بعينيها، أمسكتها وبدأت تدورها حول معصمها: لو كنت أعلم أن نجاحي سيعطيه سببا ليبتعد لما دخلت طرفا في هذا المشروع اللعين، قفزت ولاء بفرح أمامها: لقد بعتها جميعا أرأيت، ولوحت بالعلبة الفارغة أمامها، سأذهب إلى البيت لأودع النقود في (حصالتنا) إلى اللقاء يا آنسة.

منذ قتل خالها وأولاده التزمت زوجته الدعاء لهم بالمغفرة كلما ذكرهم أحد أمامها، هل تحتاجين لشيء خالتي: لا حبيبتي كل شي عنا، الكوبونات اللي عم يوزعوهن علينا من المفوضية بيكفونا مونة وبيزيدوا، حتى بعنا الكوبونات لعائلات أردنية أكثر من مرة، أمك مكفية وموفية... ربنا يحفظها.

لاحظت في طرف الغرفة مجموعة من الأغطية الجديدة، وثلاث من التدفئات التي تعمل على الكاز ما زالت في صناديقها الكرتونية: ايش رح تعملي فيهم؟ البيت مو بحاجتهم، استرسلت بقلق: ليكون مفكرين تطلعوا تسكنوا مع بيلسان وجوزها؟

- لا ما بنترك أمك، وما بدي دايئ بيلسان وجوزها الله يرضى عنن، هدول الأغراض برضه زايدين عن حاجتنا وعارضينهم للبيع، تحررت دموعها: حتى هنه بدهن يتركوني ويفلوا، ياربي تصبرني.
- ما فهمت.
- ما سمعتي، بيلسان وجوزا عم يفكروا يهاجروا لأوروبا.

- عم تمزحي صح؟! بس كيف رح يهاجروا وما معهم أوراق ثبوتية.
- تهريب يا بنتي، جوزا لبيلسان اتفق مع جماعة صحابه يهرب معن عن طريق البحر.
- امنعيها خالتي، احكي معهم كل حدا هاجر بطريقة غير شرعية غرق، المهربين بدون أخلاق، القارب اللي ما بيوسع إلا ٨٠ بيركبوا فيه ٢٠٠، ولو أي حدا منهم اعترض بنص البحر عم يصفوهم ويغرقوهم.
- حكينا كثير يا أمي، جلست والدتها لجانبها: حتى ابنها لأم إبراهيم اتصل عليه وشرحله عن اللاجئين ومصيرهم المجهول طول فترة الرحلة، حكاله ماتوا ناس متجمدين من البرد، وغيرهم غرق، وغيرهم انقتل، بس عبث ما عم يستقبل حكي بالموضوع، بيحكي ليه ما يكون هو وبيلسان من اللي ما رح يموتوا ورح يوصلوا لهديك البلاد ويعيشوا حياة كريمة.

- هذا هو اللي بيروح على الموت برجليه.
- شكله مكتوب علي أفقد كل أولادي مرة وحدة، ياربي دخيلك.
- ليش هيثم وينه؟
- ربي وقلبي يرضوا عنه، ما قبل يتركني ويروح معن رغم انهم حاولوا يقنعوه، بس حكى ما رح يسافر لأي مكان إلا إذا ربنا عجّل بحل قضية سوريا ورجعنا لبيتنا.
- والله يا خالتي اللي صار بسوريا ما كان يتصوره مخلوق، دمروها وحرقوها، الله يحرقهم بنار جهنم، بدها ٥٠ سنة لو خلصت الحرب ما بتعمر، ومو مثل ما كانت كمان .
- تعودنا، وين ما بيروح الجوز نكون معه، حتى لو على الموت، مو هيك تربينا، أصرت بيلسان بعد أن حاولت نصيحتها بعدم الانصياع لزوجها.
- بس أنت بتقدري تقنعيه يرجع عن فكرته، أنت ما بتعرفي البهدلة والخطر اللي ممكن تتعرضيله في الطريق.

- نتعرضله! مو في الشام تعرضنا لخطر أكبر من أنه نموت غرق، متنا من جوا وفاء، مع كل قذيفة نزلت قتلت جوانا شعورا، كل مرة شفت فيها بنت عم تغتصب قدام أهلها ماتت داخلي الأنثى، وكل حدا مات من العيلة انتهت معه رغبتنا بالحياة، وبتحكيلي ممكن نغرق، نحنا غرقانين بوحل الحياة من لما طلعنا من وطنا.

ورح أحكيلك شغلة حطيها حلقة بدانك، نحنا شعب عايش على الأمل طول ما عنا إصرار بأنه رح ترجع سوريا تعمر رح نضل نتنفس حتى لو كنا تحت التراب.

غير قادرة على إقناع نفسها بأن الهجرة غير الشرعية ضرب من الجنون، خرجت وفاء من منزل بيلسان.

من الصعب أن تقلب حياتك رأسا على عقب، ويتوقع منك أن توافق على العمل بنصيحة شخص لم يمرّ بنفس ظروفك ويعِش تبعاتها، لهذا لم تستطع لوم بيلسان على قرارها.

هذا ما دفعها لترسل إلى إياد رسالة نصية: اعتبر نفسك في إجازة لأيام قليلة، سأزورك قريبا.

تصميمها على تحقيق حلمها بحياة مشتركة تضمها وإياد دفعها لتتصرف بأنانية وتملك، ولماذا تكون طرفا في دمار سيلحق بهما، والدها قبل موته بيوم فقط، وكأنه شعر بدنوّ أجله، وضعها في حجره: عديني أن تفعلي كل ما يفرح قلبك، عندما نظرت في عينيه كان جادا، فأعاد: هيا عديني .

أعدك يا أبي، وكل ما يفرح قلبي الآن هو أنت.

حسنا كما تشائين، رغم رد إياد المختصر إلا أنه أفاض بأمل أعاد الحيوية إلى عروقها من جديد.

ربطت خصلة شعرها المقصوصة بشريط أحمر، وأودعتها مغلفا ورديا إلى جانب كتاب "رسائل غسان كنفاني إلى غادة السمان" وأرفقتهما برسالة:

حبيبي إياد...

لا أعلم متى أصبحت حبيبي، وكأنني نمت على غفلة من الألم لتزرعك البهجة فرحا في قلبي، حتى أنني لا أستطيع تصديقه.

أنبض بك، أعيش من خلالك، أتحرك بعد أن آخذ جرعتي من صوتك، وأزهو بقبلة من بسمة عينيك.

شممت خصلة شعري وليتك لم تفعل، نائمة على كتفي بإنتشاء من ذاك الوقت... سحرتها ولا أعتقد أنها ستصحو إلا اذا اقتربت منك ثانية... كيف يصبح جزء من جسدك قطعة تنتمي لغيرك!

رغم ما تدعيه من جفاء وتصميم منك للابتعاد، إلا أني أئتمنك عليها، وكيف لا وأنا من إئتمنتك على قلبها ونفسها... هي لك، أغبطها على مكانتها الجديدة، ولكنني سأتبعها قريبا وقريبا جدا... فكن بخير إلى أن أصل... (وفاء...).

أغلقت المغلف، وضعته أمامها على حافة الطاولة، كيف ستكون ردة فعله غدا عندما يفض المغلف؟هل سيغير رأيه ويتراجع عن قراره، سيفرح أكيد، قد يحتضنني أو يقبل جبهتي... قد يحملني عاليا وندور سويا، وقد يتعجل ويطلب مني الزواج متجاهلا كلّ ما يمر به من ضغوط ومشاكل...

حاولت الاتصال به هاتفيا فلم يجبها، أعادت المحاولة لكن دون جدوى، اعتصرها الألم شعرت بالضيق يتوسع حتى ابتلعها للداخل: لم أحاول محادثته منذ شهر حتى أنني منعت نفسي من إرسال رسالة نصية له ككل مرة.

كل هذه المدة الزمنية كفيلة بإعادته لحساباته والعودة عن قراره بالهجر.

لماذا لا يجيب على اتصالي هذا على الأقل! أعادت المحاولة فأغضبتها نغمة المشغول، انتظرته ليعيد الاتصال ولكنه لم يفعل، طلبته مجددا كانت عبارة: "الهاتف مغلق"، سور ظهر فجأة في وجه اندفاعها راكضة نزولا فبعثرها على أطرافه، تهشم داخلها، حاولت لملمته بأعذار اختلقتها لتدافع بها عنه أمام نفسها، ولكنها كمن يصب على النار زيتا، بدأ يذيب داخلها ويشعل الظنّ بأفكارها.

هذا الليل اللعين عاد إلى لعبته معي من جديد، أمن المعقول أنه لم ينتبه لمكالمتي... ضوء صغير يشتعل ثم ينطفئ فوق سريرها يعلن عن

مكالمة من الهاتف، عجلت بإغلاق الباب والتقطت الهاتف بلهفة، إنه إياد...

أيتوقع منها أن تجيبه الآن بعد مضي كل هذا الوقت دون أن يظهر رقمه على هاتفها، دون أن يشعرها بأنها تستحق ولو قليلا من الاهتمام، لم يحافظ على وعده، تناساها هكذا بكلّ سهولة، ولماذا تجيبه الآن، مشتاقة هي له... نعم هذا صحيح، ولكن أن يذوق طعم الإهمال، رمت الهاتف بعيدا وخلدت للنوم...

محاولتان فقط للاتصال بها، ثم عاد للاختفاء، لن تتحمل غيابه أكثر من هذا، لن تعود إلى دوامة زرعها في وسطها والتخبطّ الذي ينتابها لانتظار مكالماته أو أي خبر عنه، شعور غريب في صدرها يضجّ كمحرّك سيارة قديم: هناك خطب ما، أشعر بذلك، خاطبت نفسها.

غادرت عملها مسرعة وتوجهت لشركته المغلقة!

لماذا أغلقت أبوابها في منتصف النهار، كيف ذلك وشركته نشيطة تضج بالحياة حتى وقت متأخر من المساء.

دارت بسيارتها متوجهة إلى بيته، وضعت يدها فوق الجرس دون أن ترفعها، لا مجيب... وكأن المنزل مهجور منذ أيام، هل سافر؟ هكذا دون أن يخبرني، وما الذي يمنعه، ألم يفعلها سابقا!

قالت تؤنب نفسها: بس أنت ما جاوبت على اتصالاته.

- عأساس أنه حاول كثيرا كلها مرتين... هلأ أنا الملامة؟ ما قدر يبعتلي رسالة مثل ما كان يعمل في بداية علاقتنا، أو يتحجج بالشغل على الأقل.

الشباك الجانبي لمنزله يكشف عن جزء كبير من غرفة الجلوس، استرقت النظر... لا أحد، المنزل خال إلا من الهواء... يفتح قلقا ويغلق أملا في وجوده.

طلبته على هاتف يرن ولا يجيب، حاولت مرارا وتكرارا لا فائدة، تملكها قهر، فتك بعقلانيتها، وزج بصبرها في فوهة الانفجار، ضربت الهاتف بالأرض، ثم ركلته بعيدا عنها، وضعت كفها فوق فمها وصرخت... بكت... رمت بجسدها على السلم المؤدي لباب المنزل:

هل تركني! لا لا إياد... والغياب لا يجتمعا، يذيب إياد الغياب بحضوره، إذن أين هو الآن؟

توقفت فجأة: فداء بلكي عندها علم عن مكانه...

لملمت هاتفها وركضت إلى السيارة، لا تعلم كيف وصلت إلى الشركة، صاحت: فداء... كانت تخرج من مكتبها، أمسكتها وفاء من كتفيها: أرجوك أخبريني أين أجد إياد...

- اهدأي قليلا، ماذا حدث لك؟
- فقدت أعصابي، جننت... سأصل لمرحلة الهستيريا إن لم أعرف أين هو، ذهبت إلى الشركة فوجدتها مغلقة، وإياد ليس في بيته، لا يرد على هاتفه، أين هو أجيبي بالله عليك؟
- تنهدت بحزن: تعالي إلى الداخل، اجلسي سأخبرك، حجزت زوجته على الشركة بأمر من المحكمة قبل أيام، كان قويا كله كبرياء، ولكني لا أعرف إلى أين ذهب.
- حاولت أن لا تصدق ما سمعت: أتقولين أن الشركة لم تعد ملكا له.

- نعم... هي لزوجته الآن.

يا إلهي... كان يحاول الاتصال بها ليخبرها، ألم تجد وقتا آخر لتعالج إهماله!

أعمتها الأنانية، وأفقدتها قدرتها على تقدير الأمور، متطلبة هي في الحب، تحتاجه إلى جانبها في كل لحظة، لكنها لم تكن هكذا معه... كيف تداعت الأمور بسرعة فوق رأسها.

لا... لا يمكن لأي ظرف كان أن يبعدهما وينهي ما بينهما، أن يحكم على علاقتهما بالفشل، بعد أن عثرت عليه لن تتخلى عنه الآن.

- فداء إياد، علا صوت بكائها ولم تستطع أن تتحدث، كانت كلماتها تخرج مجهدة... تتوقف كثيرا ليتقدم البكاء.
- حضنتها، اهدأي قليلا، سأحاول معرفة مكانه، اهدأي.
- كيف أهدأ؟ الخيط الفضي الذي يصل بين روحي وجسدي ينفصل، وأنا أراقبه فقط.

- اهدأي وفاء، طلبت شخصا على الهاتف:

ألو مرحبا كيف حالك؟ وأنا في شوق لرؤيتك، ولكن تعلم الأعمال لا تتركنا إلا بعد أن تجهز علينا، أود سؤالك عن إياد، أحاول الاتصال به لكن دون جدوى؟

ماذا؟ زمّت شفتيها بخط مستو رفيع، أمسكت وفاء ذراعها: أين هو هل وجدته؟!

رفعت فداء يدها في إشارة تدعوها للصمت وأكملت: حسنا في أي مستشفى لو سمحت؟ دمعت عيناها: شكرا، سأهاتفك لاحقا.

إياد في المستشفى قالت فداء بهدوء الجنائز... تزفّ خبرا ميتا إليها، هو في تحسن، لكنه يحتاج للعلاج... لا تخافي عليه وفاء... إياد قوي، لكنه تخلّى عن الاهتمام بصحته في الأيام السابقة، قلة الأكل والنوم وكثرة التدخين وكميات كبيرة من القهوة زعزعت أعصابه وتركتها تتهاوى... نصحه الأطباء بالاسترخاء، يحقنونه بالمهدئ كل ٦ ساعات خوفا من حدوث ما لا يحمد عقباه.

▪ أتتحدثين عن إياد، لا يمكن حقا أن يكون هو... إياد قوي الشخصية، وليس بهذا الضعف الذي تتحدثين عنه... لم تستطع التفكير، توقفت الكلمات عن التدفق.

▪ اهدأي وفاء... ما بالك، إياد إنسان تراكمت فوقه المشاكل، وتكالبت عليه الأزمات، لكل منا طاقة للتحمل، وقد نفدت طاقته، وهذا ليس عيبا بشخصه...

▪ قاطعتها: في أي مستشفى هو، سأذهب لزيارته!

▪ قالت فداء بتردد: أخشى أن يكون غير مسموح لأحد بزيارته... حتى يتعدى المرحلة الحرجة.

▪ لا يمكن لأحد أن يمنعني من رؤيته... أخبريني باسم المستشفى وإلا خرجت أبحث عنه... قالت بحزم أجبر فداء على إعطائها العنوان.

قادتها الممرضة لشباك صغير يطل على جسده الممدد بانهزام فوق السرير، فمه نصف مفتوح، ينساب منه الزبد دون شعور، كان بلا حول له ولا قوة... كأن الحياة غادرته: هذه ليست حال مصاب بالانهيار العصبي، يبدو كمن تعرض لذبحة صدرية.

تسللت إلى غرفته بعد أن غادرت الممرضة، ووقفت على مقربة منه، وضعت يدها فوق يده وقربتها من قلبها، همست: إياد... أتسمعني، مسحت دموعها وبحزن أكملت: ما زلت أؤمن بك، وبقدرتك على اجتياز هذه المرحلة الصعبة... غضبت منك لأنك لم تتصل، ما أسخفني... ظننت أنك تتهرب مني، لم أكن أعلم ان ظروفك صعبة لهذا الحد... لكني لن أتركك الآن، أتسمع... لن أتركك، كل ما مررنا به ماض سننساه سويا ليكون المستقبل لنا... أحبك ولا يهمني ما آلت إليه حياتك...

فتح عينيه ونظر إليها، ابتسمت وبكت، قبلت كفيه: هل أنت بخير، لكنه عاد وأغلق عينيه: لا تذهب ابق معي أرجوك...

لم تستطع تقديم أي شيء له سوى الاطمئنان عليه، والبقاء قريبا من غرفته، أجبرت على الالتزام بتعليمات الطبيب بمراقبته من خلف الشباك الصغير، حاولت أن لا تشعره بوجودها حتى بعد أن لاحظت تحسنه يوما بعد يوم، كلما تحسنت صحته وتحرك جسده بحيوية أكثر كانت سعادتها تحملها إلى حضنه، عندما تتسلل خلسة عن الممرضات.

بعد ليلة طويلة من السهر غادرت المستشفى عند الفجر لتأخذ قسطا من الراحة، عادت في الظهيرة لتجده قد غادر بأمر من الأطباء، لم تتمالك نفسها هرولت إلى سيارتها، تذكرت هديتها له، وبعد أن نظرت إلى وجهها في مرآة حقيبتها قالت: يجب أن أبدو بأحسن صورة.

ارتدت فستانا بلون فاتح، رفعت شعرها ووضعت بعض مساحيق التجميل... حملت رسالتها التي ضمت خصلة شعرها، اهتمامها بتجميل وجهها أخذ الكثير من الوقت: لا يهم، لن أترك إرهاقي يمتزج بتعبه...

ابتاعت باقة من الورود... دقت جرس الباب وانتظرته، لم يستغرق وقتا طويلا: نظر إليها ولم يدعها للدخول كما لم يرحب بها، مشى إلى داخل المنزل ببطء دون أن ينطق بكلمة، وترك الباب مفتوحا أمامها، رافقها الإحراج إلى الداخل...

رمى جسده الهزيل على كرسي في وسط الصالة الكبيرة، رغم جلوسها أمامه ووضع يديها فوق ركبتيه، إلا أنه بإحباط تصرف كأن لم يرها، تجاهلت لا مبالاته، وقفت ووضعت الورود على الطاولة، عادت لتقترب منه، أخذت تمسح بيدها على شعره: هل تشعر بالإعياء؟ أأحضر لك كأسا من الماء... لم يجبها، كل ما فعله أنه حملق في السقف دون أي رد فعل.

التفت إليها وهي تدخل حاملة صحنا من الشوربة التي أعدتها للتو في مطبخه، وقوفه قريبا من النافذة رفع مؤشر الخطر لديها: يجب أن نتحدث ، قال بإحباط.

نبرة صوته أفقدتها توازنها، حاولت أن تبعد الشعور المخيف الذي رافق كلماته، أن تلغيه، أن تنفيه، حاولت أن تبتسم: تناول غداءك أولا...

- قاطعها: سأتناوله لاحقا، أشار إليها لتجلس أمامه، اعتقدت أنه سيطلب منها أن تجلس إلى جانبه هكذا عودها... قالت في نفسها هذه أول مراحل إبعادها عنه، لكني لن أسمح له بذلك أبدا.
- حاولت الاتصال بك تلك الليلة، تمنيت لو أسمع صوتك، كنت أحتاج إلى من يمدني بالطاقة بعد أن تعرضت لانهيار مفاجئ في أطرافي، خروجي من الشركة بتلك الطريقة يفوق تصوري، يفوق قدرتي على التحمل...

لكنك لم تجيبي... نظر إليها مباشرة: شعرت بك، كنت متأكدا أنك مستيقظة، تركت شعور الغضب يتفوق عليك... هل تخيلت في يوم أني سأخلف وعدا قطعته لك، إلا إذا واجهني أمر طارئ حال دون تنفيذي له في تلك اللحظة، أخبرتك أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة أني إن لم أوفِ بوعدي في وقته فسأدخره لك لوقت لاحق، وقد

يتضاعف... يااااه كم احتجتك تلك الليلة، شعرت بالوحدة، بالضعف، ضاقت علي الظروف، وللأسف لم أجدك... انهرت، أتعلمين ماذا يعني أن أنهار... إياد القوي صاحب الشخصية الحديدية فقد قدرته على التحكم بجسده... نزلت دموعه رغما عنه... مدت يدها ناحيته فأبعدها: أشباح أطباء يروحون، وآخرون يأتون وكأنهم يحضرونني للموت...

شعوره بالقرف منها فاق تصورّها، لم تقترف ذنبا لا يغتفر، وأية علاقة تلك التي لا تمرّ بخلافات وسوء تفاهم! ردّت بخوف:

- هذا لا يعني أني لا أحبك وأني تخليت عنك كل ما حدث أنني شعرت بشوقي وفسرته بطريقة خاطئة نستطيع اجتيازها.

مسح دموعه، واقترب منها، ضم أصابعها بيديه وقال بضعف: لست أنت السبب يا صغيرتي...

قال صغيرتي، إذن لن يتركها، استطرد قائلا: أخشى أننا سنفترق هنا...

توقف الزمن، لم تعد معه، بل تقف خلف شباك منزلها في قريتها تراقب سيارة أطلقت سحابة عالية من الغبار الكثيف، وظلّا مشوها خلف المقود يأخذ طريقا نحو العدم...

أجفلت بعد أن طبع قبلة على جبينها: لا تفعلي ذلك بي، أنت من البراءة ما يخيفني، هل تصدقين أنك تخيفينني... أخشى عليك من الانكسار... طيبتك تقتلني، ولن أكون سببا في مأساة أخرى لك...

حاولت أن تعيده إلى رشده: لن تفعل انظر، قامت من مكانها وأحضرت المغلف الورديّ عن الطاولة.

أخذت دموعها تتسابق، وجلست إلى جانبه، اختنقت بضحكتها الصفراء: افتحه... هيا ستسعدك هديتي... ازدادت دموعه غزارة، ونظر إليها بشبه تضرع يرجوها أن تتوقف.

- بارتباك: سأفتحه أنا عنك، لا تتعب نفسك، أعلم أنك ما زلت مرهقا... ضم كفيها بين كفيه وضغط عليهما برفق: لا داعي لذلك غاليتي، ما زلت أحبك... علا نشيجه، أغمض عينيه: ألا تفهمين أنّ الهديّة لن تغيّر قراري....

▪ أغضبها ضعفه كيف ظنّ أنه عندما يتركها ستكون بخير، كيف سيحافظ عليها عندما يفترقان، ثار كبرياؤها عليها، تمنّت لو أنّ الأرض تنشقّ وتبتلع ما بقي منها: طيبة أنا... ولكني لست حمقاء... أجابته بحدّة: هل تبحث عن سبب لتتركني، ووجدت ما آلت إليه ظروفك سببا مناسبا! هل تعتقد أنني سألاحقك، كان بإمكانك أن تخبرني بذلك، ولن تراني أو تسمع صوتي مجددا.

▪ أعذرك، وأعلم أنك تتحدثين من جرحك، لا أطلب منك السماح، جلّ ما أتمناه منك أن تلتمسي لي العذر.

توجهت مسرعة نحو الباب، أعمتها دموعها، كأنها نصل سكين قاتل غرسه عميقا في قلبها.

أمسكها من رسغها وضمها إلى قلبه: ليتني مت قبل أن أكون سببا لدموعك... ليتني لم أعرفك، ظننت أنني أستطيع أن أبدأ معك من جديد ظلمتك أعلم...

أبعدها قليلا ونظر في عينيها: سأسافر قريبا، لم يعد لي شيء هنا، حتى أنت حبيبتي ومعشوقتي وقطعة من قلبي، لم أستطع المحافظة عليك...

أبعدته عنها بغضب: لا تدعي الحب، فمثلك لا يملك المشاعر... أنت درس في الغدر لن أنساه ما حييت... دفعته للخلف: كلكم هكذا، ليس بينكم رجل واحد صادق، حتى أنك لست برجل.

لم تتوقف لتراقب وقع كلماتها عليه... قادت سيارتها على غير هدى لا تعلم إلى أين تذهب... تشبثت برسالتها فوق المقود، لمعت أسورته في معصمها، شدتها بقوة حتى قطعتها ورمت بها من شبّاك السيارة، لا تعلم كيف حدث، وأصبحت أمام شقة فداء تدقُّ بابها...

- يا إلهي هل تسببت لنفسك بحادث؟

رمت بنفسها على كرسيّ قريب، وأخذت ترتجف: ما بالك وفاء؟

فوق المغلّف الورديّ، أجهشت بالبكاء: أنت تخيفينني؟

سحبت فداء المغلّف من بين أصابعها وفتحته... ارتسم على وجهها شعور لا يفسر: ماذا حدث بينكما؟

كالطفلة الصغيرة أخذت تمسح عينيها بظهر يدها، تمالكت نفسها... نظرت مطولا إلى فداء... ورددت سؤالها كأنها تسمعه للمرة الأولى: ماذا حدث؟

- لم يحدث شيء، كل ما هنالك أني استعجلت الفرح... والفرح استعجل الرّحيل.

﴿تمّت﴾